رائحة التانغو

دلع المفتي

رواية





دلع المفتي

- كاتبة وصحفية.

- تكتب عمودا اسبوعيا في جريدة القبس الكويتية بعنوان "ابتسامة خجلى".

صدر لها :

- هن لسن أنت - رواية.

- عورة - مجموعة قصصية.

- هل تسمحون لي - مجموعة مقالات.

رواية

رائحة التانغو

الكتاب: **رائحة التانغو**

المؤلف: **دلع المفتي**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: يناير (كانون الثاني) 2015

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 9948 - 22 - 573 - 7

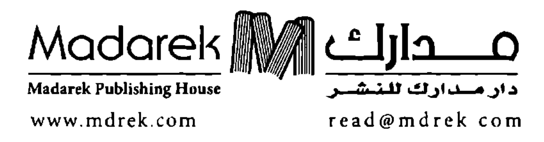
طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

لوحة الغلاف بريشة: جبر علوان www.jaberalwan.com



الكتاب متوافر لدى معرض مدارك للنشر والتوزيع

الرياض، حي المحمدية، طريق الامام سعود بن عبدالعزيز



www.mdrek.com read@mdrek com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing

دلع المفتي

رواية

رائحة التانغو

«إن ماتت أمي، اليوم، فلن أحزن عليها. ربما سأحزن على نفسي لفقدها، لكني سأسعد لها بالتأكيد». تتمتم وهي تغلق سماعة الهاتف بعد أن اتصلت بأمها كي تطمئن عليها، لتجد أن الأخيرة لا تتذكرها.

تبدو أم جاسم وكأنها تستجدي موتًا لا يأتي، تترقبه بشوق. لم يبقَ عضو سليم في جسدها الهرم، ولم يعتذر مرض عن زيارتها والإقامة عندها: السكري، ارتفاع ضغط الدم، ترقق العظام، قرحة المعدة، والأصعب عتامة عدسة العين وبداية الزهايمر.

كأنها تعيش لتتألم. لتظلّ نهب الفقد والذاكرة والمرض. يدخل جسمها الضئيل من الحبوب والأدوية أضعاف ما يدخل من ماء وغذاء. تنام بالمسكنات وتنهض بالمنشطات. يحضر ذهنها أحيانًا، ويغيب معظم الوقت. تنسى الأسماء والوجوه، الأماكن والتواريخ.

تنسى كلّ شيء، باستثناء ألمها... وجاسم.

1

بصل

شذ قلم الكحل عن خطّه المستقيم، وانحرف نزولاً، ليرسم لونًا قاتمًا تحت عينيها. بتأفف، زاد من تعكّر مزاجها الصباحي، تناولت منديلاً ورقيًا ومسحت اللطخة السوداء، لاعنة المكياج ومن اخترعه، لكنها سرعان ما استعادت نفسها الأخرى؛ ورسمت بدقة متناهية حدود عينيها السوداوين الواسعتين من جديد.

كأنها ولدت مرتين، مرة لتجد نفسها ابنة فاضلة للشيخ محمد المرسوم بجلالة قدره، ومرة لتكون زوجة رجل الأعمال الكبير عادل الأحمر. زوجته الساقطة!

تخرج من مرآتها، لتتأمل داخلها الذي تواريه، وخارجها الذي ترفضه. وكطفل أفاق من نومه فجأة ليجد نفسه في مكان غريب، تجزع؛ «من كان سيصدق أن الشيخ محمد، أبا جاسم، الذي كاد أن يتولى مركزًا مرموقًا في وزارة الأوقاف، لولا تدخلات بعض الحساد، يمكنه إنجاب بنت مثلي، بناته الثلاث الأخريات؛ أخواتي، كبرن كما أراد لهن أن يفعلن... محجبات، ملتزمات، ورعات. أما أنا...!»

قطع تفكيرها رنين الهاتف المحمول، المرمي على حافة

سريرها، التقطته وهي تحمل فردة حذاء بينما تحاول لبس الأخرى. نظرت إلى الشاشة، ابتسمت.

بلمسة من إصبعها فتحت الخط، وأجابت:

— هلاااا حمودي!

بالنبرة نفسها ردّ:

— صباح الخير يا حلوة. ما أخبارك؟

— ماكو... أُجهز نفسي لأخرج. كنت أنوي زيارة أمي، لكن اتضح أن عندها موعد طبيب. سأذهب للـ «شوبينغ». هل ترافقني؟

وأطلقت ضحكة مجلجلة.

— لا حبيبتي! إن ذهبت معك سنتنافس على الزبائن. إيه يا مجنونة... هل ما زلت مصرة على تنفيذ خطتك؟

— وهل تعرفني أغيّر رأيي بسهولة؟ ثق أنني سأفعلها ولن أتراجع!

— خلاص إذن. أكملي «الشوبينغ» واتصلي بي، عندي كم «سالفة» ستعجبك.

رمت بالهاتف داخل الحقيبة، وأنهت تجهيز نفسها. ألقت نظرة أخيرة، مترددة، إلى المرآة. مممم، لا بأس!

فستانها الأبيض القصير، قرطاها المتدليان بنعومة من أذنيها، حذاؤها الجلدي الملون الذي اشترته مؤخرًا رغم تأنيب الضمير الذي انتابها لثلاثة أيام متتالية.

«الله يلعنهم، ماذا في الحذاء كي يكلف 300 دينار؟ لكنه «لو بوتان» وعندما يكون من تصميم المسيو لو بوتان، فلا بد أن ترضخ للسعر!

ابتسمت، وهي تتذكر كيف وقعت في حب الحذاء من النظرة الأولى. كان يتلألأ في واجهة المحل بشارع الفوبور في باريس، فجأة ومن دون تفكير طويل، وكما فعلت من قبل مع كثير من أزواج الأحذية التي تملكها، دخلت، اشترته وخرجت، في غضون دقائق. انتظرتها سارة خارج المحل دون تعليق، فقد كانت تعرف، تمام المعرفة، أن أمها حين ترغب في حذاء، فلا قوة على وجه الأرض ستمنعها عنه.

«غريب شغف النساء بالأحذية»، راحت تهمس وهي تربط خيوط الحذاء الجلدية لتحكمها حول كاحليها، «هل لأنها الشيء الوحيد الذي لا يعتمد على مقاييس النحافة العالمية، بينما تحرم النساء من ملابس كثيرة بسبب أوزانهن! تشتري المرأة فستانًا واحدًا مقابل عشرات الأحذية: أحذية للمشي وأحذية للعمل وأخرى للمباهاة، أحذية نلبسها، وأخرى تلبسنا».

لطالما أغرتها تلك الفكرة التي تقول بأن الحذاء يعكس شخصية الإنسان. حين تجلس في مقهى أو مكان عام، عادة ما تتابع بنظرها أقدام العابرين وأحذيتهم، تخمن أين كان هذا الحذاء وصاحبه، أين مر؟ وبمن التقى؟ وإلى أين هما الآن ذاهبان؟ تسحرها أكثر أحذية النساء مما يتيح لها الفرصة أن تحلّل شخصية المرأة من نوع وشكل ولون حذائها، فترسمها في خيالها وتلبس هذه تاجاً، والثانية مريولاً، وأخرى تلبسها الحذاء فقط.

ضحكت وهي تتذكر «كاري برادشو» بطلة مسلسل (الجنس والمدينة) وعشقها لأحذيتها لدرجة أنها عندما تعرضت للسرقة في أحد

شوارع نيويورك، صرخت في وجه السارق: «أرجوك سيدي، يمكنك أن تأخذ حقيبتي، وخاتمي، وساعتي، ولكن لا تأخذ حذائي».

تضع آخر لمسات زينتها. تلصق ابتسامة مغرية فوق شفتيها، ترش قليلاً من عطر الورد المفضل لديها، وتغادر غرفتها. حال ولوجها الصالة، تصدمها رائحة البصل الذي تستعمله «جولي» في كلّ طبخاتها، لا تفهم حب هذه الفتاة للبصل، حتى أنها تطبخ البصل بالبصل!

- تبًّا لك يا جولي. لازم «تقرفيني» بفطورك كلّ يوم؟

حاسة الشم عندها قوية إلى درجة تزعجها، بإمكانها؛ ليس فقط تمييز الروائح على بعد أمتار والتفريق بينها، لكنها، أيضًا، تستطيع شم المشاعر والعواطف. اللؤم، الفرح، اليأس، الحزن وغيرها من المشاعر السلبية والإيجابية. بالنسبة لها، لكلّ عاطفة رائحة تفرزها الأجساد وتستطيع اكتشافها بسهولة، إذ حتى الأشياء تملك رائحة خاصة بها.

Hyperosmia أو فرط حاسة الشم، هكذا فسر الطبيب يومًا حالتها، قائلاً: مستقبلاتك الشمية حساسة جداً، لأسباب وراثية أو بيئية لا علاقة لك بها. لكن لا داعي للقلق، فزيادة حاسة الشم أفضل من فقدانه.

تلقي نظرة عبر نافذة صالتها، تغسل عينيها بزرقة البحر الأخاذة، وبتلقائية تجول بعينيها في المكان، لتتأكد من ترتيب الشقة ونظافتها. هذا الذي تسميه مكانًا هو ليس بيتاً، ولا هو مأوى ولا هو ذكرى. إنه مجرد مكان، لا أثر لأقدام صغيرة على أرضياته، لا ضحكات بريئة تركت صداها في زواياه، لا روائح محببة، لا ذكريات، دموع فحسب، دموعها التي غسلت جدرانه وأرضيته .. دموع قلبها.

لطالما لفتها برودة جدرانه رغم درجات الحرارة القياسية التي تسجلها الكويت كل عام.

قياسا بامرأة لا تحمل للمكان أية ذاكرة خاصة، فإنها تتذكر جيدًا يوم انتقلت إليه منذ سنوات بعد تخرّج سالم وسارة من الثانوية. قفز عادل سريعًا على السلم الوظيفي وسلالم أخرى لم تكن لتدركها بعد، فتركوا شقتهم القديمة في الجابرية وانتقلوا إلى شقتهم هذه المواجهة للبحر على شارع الخليج. رفض عادل فرصة الحصول على منزل حكومي كما غيره من الكويتيين. عندما اقترحت عليه تقديم الطلب، تأفّف قائلاً: سنحصل عليه ونحن على حافة القبر، كما رفض أيضًا قرض الـ 70 ألف دينار، الذي تقدمه الحكومة ضمن خطة أرض وقرض لكلّ كويتي يرغب ببناء سكن له. أصرّ على فكرته؛ لن أعيش في المناطق «المتخلفة» التي يتفضلون علينا بها. يستأثرون بأجمل المناطق وأرقاها، ويرمون بنا في الضواحي النائية عند الدائري السابع!

عمارة جديدة، بطراز معماري عصري، تحتوي على كلّ مستلزمات الشقق الحديثة، في منطقة «الشعب البحري»، تناسب طموحات عادل وتطلعاته. الشقة على صغرها فخمة. ثلاث غرف وصالة وغرفة طعام، احتل زوجها الأخيرة وحوّلها دون نقاش إلى مكتب بيتي له، ودون نقاش اقتطعت زاوية من الصالة وحوّلتها إلى ركن للطعام. المكان شبه عارٍ، بأقل قدر ممكن من الأثاث، ديكورات حديثة وبسيطة، يسميها (mimimalist). مكان باهظ الثمن وبلا رائحة. بالضبط كما أراد زوجها المحترم؛ خطوط مستقيمة وألوان باردة. يربكها ما تراه حولها كما لو كانت تراه للمرة الأولى. كنبة كبيرة من المخمل الرمادي، يقابلها كرسيان مصنوعان من الجلد الأسود. في الوسط طاولة خشبية كبيرة، رُصت فوقها مجلات علمية واقتصادية،

وعلبة مصدفة اشترتها في زيارة لها للهند. على الحائط المقابل مكتبة كبيرة تحوي التلفزيون وملحقاته، ورفوف توزعت عليها صور أولادها، وكتبها ومجلاتها. في الزاوية طاولة طعام بيضاوية الشكل من الخشب الأسود يحيط بها ستة مقاعد رمادية من الجلد، عُلقت فوقها لوحة كبيرة بخطوط مستقيمة ومكعبات سوداء وبيضاء ورمادية، يقطعها في المنتصف خط أحمر خفيف، كجرح يخاف أن يخدش رمادية المكان. في النهاية لم تكن سوى شقة بلا روح.

صرخت:

– جووولي!

تدحرجت العاملة الفلبينية بكامل شحمها ولحمها، كالكرة خارجة من المطبخ:

– «يس مدااااام». ثم توقفت ونظرت إلى سيدتها بإعجاب:

– مداام.. تبدين في غاية الإغراء.

نسيت زهرة رائحة البصل التي كانت تريد أن تؤنب جولي بسببها، ابتسمت رغمًا عنها وهي تحاول أن ترسم علامات الجدية على وجهها:

– كم مرة حذرك (سير) من ترديد هذه الكلمة؟

ما زالت تتذكر جيدًا ذاك المساء الذي انفجر به عادل حين كانا في طريقهما لحضور حفل زفاف زميل عادل في العمل، وكانت زهرة قد استعدت وتزينت كأجمل ما تكون. رأتها جولي فصرخت:

- «Madam you are so SEXY!»

جن جنون عادل ونهرها، قائلاً:

- أليس في قاموسكم كلمة أخف وطأة على الأذن؟ ألا تستطيعون قول (جميلة) أو (لطيفة) مثلاً؟

وعندما حاولت جولي تبرير جملتها، قاطعها قائلاً:

سبق وسمعتك تقولين لابنة جيراننا أنت (سيكسي).

ثم التفت إلى زهرة صارخًا:

لا أحد يرى إغراءً في الطفولة إلاّ هؤلاء المرضى، ومشايخ الفضائيات الجُدد.

كان عادل لا يفوّتُ فرصةً لافتعال أي مشكلة كلما قرأ أو سمع تصريحًا لأحد المشايخ، حتى أنه افتعل مشكلة قبل أشهر بينهما عندما قرأ خبرًا في الصحيفة عن شيخين أحدهما أفتى بتغطية وجه الرضيعة إن كانت جميلة، وآخر قال: إنه لا يجوز أن تجلس البنت مع أبيها، إن كانت جميلة خوفًا من أن تفتنه، وكأنها هي من أفتت بهذه المواضيع. حاولت زهرة تهدئته، واختلقت عذرًا لجولي كون الكلمة دارجة في لغتها. لكنه ظل الليلة بأكملها متوتراً، وكأنه أراد حجة لينغص عليها سهرتها.

عادت لجولي:

- اسمعي، خزانة الأحذية في غاية الفوضى، أفرغيها وأعيدي ترتيبها كما علمتك، حسب اللون وارتفاع الكعب.

يس مدام. هل أحضر لك القهوة الآن؟

- لا... سأشربها في السوق. مستعجلة الآن. (سير) لن يعود،

وأنا سآكل في الخارج، اطبخي لنفسك ما تريدين، يمكنك إن أردت طهي السمك الجاف الصغير الذي يحوّل البيت إلى مَسمَكة، خذي راحتك. لكن اعملي على تهوية البيت جيدًا قبل أن أعود. واحرقي عودًا من البخور حوالي الساعة السادسة.

أغلقت زهرة الباب وراءها. ضغطت زر المصعد. سمعت أزيز باب الشقة المقابلة. خرج خليفة، جارهم الإرهابي، كما يسميه زوجها، و«المجنون» كما تسميه هي.

خليفة في الثلاثينيات من عمره. عادل بطريقة تلقائية لا يحبه، حتى أنه اشتكى لأصحاب العمارة لتأجيرهم الشقة لأعزب، رغم أن خليفة كان قد استأجرها قبل تطليق زوجته. فحين انتقل عادل وزهرة الى الشقة كان خليفة وطليقته ما زالا زوجين وإن كانا على خلاف. كانت ريم امرأة مثقفة جميلة من عائلة محترمة تعمل في شركة عقارية كبيرة. وكانت لطيفة جدًا مع زهرة. لكن جارهم الأسمر الطويل ذو الشعر الكثّ والذي غزاه الشيب مبكراً، كان غريب الأطوار، قاسي الملامح، ومتقلب الأحوال، يهم بالسلام والتحية أحيانًا ويتجاهلها غالبًا. ورغم انعزاله، تقريباً، إلاّ أنه كثيرًا ما يرافق ولديه عمر وحسن ليلعب معهما في الحديقة الخلفية. حينها فقط يتغيّر أسلوبه. يعتريه حنان طارئ فيبدو ألطف، حتى أن ملامحه تصبح أقل قسوة!

كانت زهرة تسمع شجارهما عبر جدران الشقة وكثيرًا ما التقت بخليفة يخرج من بيته غاضبًا لدرجة أنه لا يراها. لم تشأ أن تتدخل في أمور جارتها، لكنها سمعت من البعض أن ريمًا طلبت الطلاق من زوجها لسوء خلقه وأخلاقه، ولم يتردد هو، وطلقها عن طريق رسالة هاتفية لم يعترف بها القاضي، وطلب حضوره. حينما حضر، عرض عليه القاضي فرصة لرأب الصدع، فما كان منه إلاّ أن قال له: «أنا كلّي

صدع.. فماذا سترأب؟»

- صباح الخير أم سالم.

إنها إحدى حالاته الأفضل إذن.

- صباح النور بو عمر كيف حالك وكيف الأولاد؟

ردّ بتهكم:

- في (غوانتانامو) عند أمهم. لا أراهما إلاّ في نهاية الأسبوع، عندما تفك أسرهما.

لم تشأ الدخول في نقاش عائلي لا ناقة لها به ولا جمل، فردت بدبلوماسية:

الله يخليهم لك ويفرحك فيهم.

نسمة هواء صيفية ساخنة ألهبت وجنتيها، عند مدخل البناية، اتجه كلٌّ إلى سيارته. سمعت جرس ضحكة حسيبة قبل أن تراها. تذكرها بممثلات السينما المصرية القديمة، سمراء غامقة، ملفوفة القوام، بشحوم تتوزع في أماكنها الصحيحة، تملك عينين صغيرتين وحادتين تختفيان تمامًا كلما ضحكت. ركضت حسيبة نحوها وهي ترفع طرف (جلابيتها) بيدها:

صباح الخير يا ست الستات.. صباحك قشطة.

صباح الخير يا حسيبة... ازيك؟

قالتها باللهجة المصرية المحببة إلى قلبها.

إن كنت إنت بخير أنا بخير يا ست زهرة.

تناديها (زُهرة) بضم الزاي بلهجة صعيد مصر، لا تدري أيعجبها ذلك أم لا؟. في الحقيقة، هي لا تعرف هل تعجبها حسيبة أم لا؟. راحت تتأملها: كيف تكون هذه المرأة دائمًا سعيدة، رغم فقرها وتعبها وقهرها؟ كيف تجد السعادة ومن أي نبع تغرف؟ تعيش في هذه الغرفة الضيقة والمعتمة أسفل العمارة، تعمل أكثر من خمس عشرة ساعة في النهار لتقبضَ ما يجود به السكان عليها لترسل به إلى أولادها في مصر. زوجها يقبض المئة دينارٍ من أصحاب العمارة، كحارس دائم، أما هي فضيف غير مرغوب به بالنسبة لهم، وعليها أن تتدبر أمورها بنفسها.. وهي بالتأكيد تفعل.

أمال فين العم عطية؟

نايم ياختي زي عوايده.

ابتسمت زهرة، ربتت على كتفها وركبت سيارتها.

شهر يونيو من أكثر شهور السنة حرارة في الكويت. صيف مشتعل، حارّ وخانق. وإن قرر الطقس أن يسوء أكثر، هبت عاصفة رملية تعمي البصر. بعض الناس لا يصدقون أن هناك بشرًا يتعايشون مع درجة حرارة 50 درجة مئوية، بل يتمطى صيفهم ويجرجر قدميه ليستمر لأكثر من تسعة أشهر حتى بعد أن يلبس بقية العالم معطفًا وقبعة.

لم يكن مشوارها بعيداً، بضعة كيلومترات بين منطقة الشعب البحري والصالحية حيث تقصد، كما أنها الحادية عشرة من صباح السبت. ليس التوقيت المفضل (للحبِّيبَة) الذين يجولون الشوارع جيئة وذهابًا بحثًا عن ضحية. سلكت شارع الخليج، طريقها المفضل. رغم الحرارة، فتحت نافذة سيارتها وأخذت نفسا عميقًا خزنت رائحة هي

الأحب إلى قلبها. لا شيء في هذه المدينة يعالج نار قهر قلبها سوى لون البحر ورائحته، وأمامه فقط يمكنها أن تعري روحها وتغسل همّها في مائه، وهذا ما يجعلها تكافئه بأعذب ابتساماتها.

لكن رائحة البحر، اليوم بالذات، أجّجت فيها مشاعر متضاربة. ذكرتها بسهرة الشاليه منذ أسابيع. عشاء صغير أقامه حميد على شرف فنانة فرنسية، تزور الكويت لإقامة معرضها الفني ضمن مهرجان صيفي ثقافي. السماء الصافية والنجوم المتدلية جذبتها بعيدًا عن ضوضاء الغرباء وضجيج مجاملاتهم التي لا تنتهي. سحبت كرسيًا بلاستيكيًا ومشت حافية حتى حدود الماء والرمل. رفعت طرفي بنطالها الأسود الضيق إلى حدود ركبتيها، نزعت جاكيتها الحريري الأبيض، لملمت شعرها بعيدًا عن وجهها، وجلست تتأمل. هدوء الثواني الأولى تلاشى فجأة أمام اختناقها بصور بشعة بدأت تتراكض أمامها كفيلم رعب طويل. تسترجع طفولتها وتسمع صوت نحيبها المكتوم، تمسك بطنها وتعصر أحشاءها، أرادت أن تتقيأ كلّ ما في رأسها.

ترى وجه جاسم ثم وجه عادل. وجهان يمتزجان فيحلّ أحدهما محلّ الآخر، كما لو كانا قد اتفقا ضدّها. تطابقت الصورتان لحظة شعرت بيد خفيفة تربت على كتفها. انتفضت وصرخت برعب في وجه الغريب. اعتذر بصدق حين رآها ترتجف كغصن رقيق أمامٍ عاصفة عاتية. اقترب منها يريد أن يهدئها، فانسحبت خطوة إلى الوراء، زعقت في وجهه: لا تلمسني! فتراجع خجلاً.

فور أن تمالكت نفسها، اعتذرت منه، مستعيدة رقتها: أنا آسفة؛ لكنك أخفتني. اعتذر مجدداً. كان خالد لطيفاً، ودودًا لكنه جريء ومتسرع، جلس بجانبها على رمل الشاطئ بينما عادت إلى كرسيها تنظر إليه من عل. تجاذبا أطراف الحديث معاً، بل لمزيد من الدقة،

كان الحديث له والإصغاء لها. راح يهذر، كلمها عن كلّ شيء حتى عن أدق أموره الشخصية. استغربت بداية، ثم تركته. أقنعت نفسها: «يسهل البوح بين الغرباء، لا أحد منا سيتذكر شيئًا عن الآخر غداً». تغيّر نغم كلامه بعد فترة. راحت نظراته تتفحصها. شربها بعينيه وهو يطري جمالها ويتغزل بقوامها، نسيتْ نحولها وشحوبها، وصدقته. أرادت أن تصدقه، وتتناسى مرآتها التي لا تخدعها. لم تجرؤ على مقاطعته، ومع زجاجة النبيذ المدفون نصفها في الرمل وكأسه الذي ما إن يفرغ حتى يمتلئ مجددًا، مرَّ الوقت، ولم تشعر إلاّ وهي تضحك وقد تركت كرسيها ونزلت تجلس على الرمل بجواره. عرض عليها إكمال السهرة في الشاليه الخاص به والملاصق لشاليه حميد، جرّها من يدها ليقضي نهائيًا على ترددها، حاول أن يحيط خصرها النحيل ويشدها إليه، وهي تتملص من ذراعيه القويتين بغنج. دخلت، أغلق الباب بقدمه. لم تشعر بهول وضعها إلاّ عندما وجدت فمه يبحث عن شفتيها. جزعت. فكرت أن التراجع لم يعد ممكناً، تبخر مفعول الغزل فور أن شمت أنفاسه، راوغته هربت بوجهها، وبدأ التشنج يسيطر على عضلاتها. حين رنّ هاتفها النقال، انسلت من أحضانه وسارعت للبحث عنه في حقيبتها الصغيرة. سمعت صوت حميد يسأل عن (الداهية) التي اختفت فيها. ردّت بعجلة: أنا على الشاطئ، دقائق وأكون عندك.

وصلت مجمع الصالحية الراقي. نزلت من سيارتها ببطء، فأسرع موظف ركن السيارات لاستلامها. أعطاها إيصالاً برقمها، وابتعد بسيارتها باتجاه المرآب. كعارضات الأزياء تهادت في مشيتها ليتمكن عابرو الشارع من تأملها، قبل أن تدلف إلى برودة المجمّع. لم تكن تنوي أن تقوم بـ«الشوبينغ» المعتاد، لكن العذر لا بدّ أن يكون مقبولاً حتى أمام نفسها. دخلت محل كارتييه الفخم للمجوهرات، ثم محل شوبارد، ثم محلات الأحذية وهي تقاوم رغبتها الملحة في

الشراء. رائحة المجمع تعبق بالثراء. النساء بكامل زينتهن وعطورهن ومجوهراتهن يتبخترن فوق كعوبهن العالية، وكلّ منهن تحمل الحقيبة الأغلى. سباق مجنون بينهن لشراء الحقائب (الماركة). مرت بجانب محل (شانيل)، فوجدته مزدحمًا بالنساء، سخرت «ربما قرروا أن يوزعوا حقائب شانيل مجانًا اليوم». تذكرت حقيبة (هيرميس) المشهورة، التي كان على من تريد شراءها أن تنتظر سنتين للحصول عليها. هناك (Waiting list) قالت منيرة لها مرة: من يريد أن يدفع 2000 دينار لحقيبة وليس لسيارة، عليه أن ينتظرها!

لم يكن المال مشكلة بالنسبة لها. رغم كلّ علل عادل، كان الكرم ميزته الوحيدة. أمام بذخه وتبذيره، تتساءل أحيانًا، من أين يأتي بكلّ هذه الأموال؟. لا يشتري إلاّ أغلى الماركات ولا يسافر إلاّ على الدرجة الأولى، ويرسل أموالاً طائلة لولديه في باريس دون مساءلة. ورغم أنهم يعيشون في شقة صغيرة في الكويت، ما زالت تتذكر جيدًا حين عرض عليها ذات مساء أن يشتروا شقة في لندن. صعقتها المفاجأة. «من أين لك ثمن شقة في لندن؟ أبوك ما زال حيًّا أطال الله في عمره، ومعاشك لا أظنّه كافيًا لشراء شقة لك في دارفور». أنهى الموضوع، ولم يفتحه معها ثانية.

وصلت إلى مقهى ستاربكس في مركز المجمع، لم يربكها أنه كان يعجّ بالرجال. طلبت الكابتشينو المعتادة، برشة القرفة بدلاً من الشوكولاتة، استلمتها، وراحت تبحث عن طاولة. تعلقت عيون الرجال الجالسين في المقهى بالفستان الأبيض الذي زادها شحوبًا، لكن قصره أدى المهمة المطلوبة منه فالتفت الأعناق صوبها. كانت نحيلة، نحول تحلم به نصف سيدات الكويت، مع أن زوجها دأب على السخرية منه ومنها. تذكرت كلماته واشتمت رائحتها: «هذه المرأة البسيطة زوجة

البواب تملك من الأنوثة أكثر منك بمراحل». تساءلت، كيف يمكنها وحدها أن تشم الرائحة التي تفوح من كلماته؟ منذ ذلك اليوم وكلما صادفت حسيبة، شمت رائحة الحقد واستقرت عينيها عند نهديها العارمين. لكن زهرة كانت تملك أكثر بكثير من مجرد ثديين عارمين. عيناها الواسعتان، أنفها الدقيق، طولها الفارع، شعرها الأسود اللامع، وبشرة بيضاء شمعية، إضافة إلى غمازتين تحفران في خديها نقطتي حسن جاذب كلما أشرقت ابتسامتها الساحرة.

جلست في ركن تطل منها على المجمَّع، تتابع المارة، متجاهلة نظرات الرجل الجالس في الزاوية المقابلة والتي يسددها نحوها دون أن يرف له جفن. أدارت ظهرها له وتصنعت اللامبالاة، فيما ظلت ترقبه بطرف عينها. «لا بأس به، وإن كان يبدو سمينًا جدًا قياسًا بشروط (الشوبينغ). راحت تؤلف قصصا لروّاد المقهى كعادتها؛ هذا متسلّل من عمله، وذاك من زوجته. هذا يبحث عن تسلية وذاك عن خيانة. «مثلك» سمعت ضميرها يهمس لها.

وخزها شيء ما، كيف أصبحت على ما هي عليه الآن؟ ومتى انقلب حالها؟ منذ متى صارت تفكر بهذا (الشوبينغ)؟ أسئلة تنبت في روحها كالأشواك.

2

«Baby oil»

رنّ جرس هاتفه المحمول وهو يدخل بوابة فندق الشيراتون:

نعم زهرة!

هل ستتأخر في الخارج ككل يوم؟ قالتها ببرود.

ربما، لا أدري. فعندي اجتماعات مع عملاء أجانب في الفندق. سأتصل بك عندما أنتهي.

أغلق الخط وهو يهجس: «لم تصر زهرة على الاتصال بي يوميًا لتتفقد وقت عودتي إلى البيت، في حين أنه حين أعود، لا تهتم لوجودي!» منذ زمنٍ لا يستطيع تذكره، أصبحت حياتهما على هذا القدر من البرودة، بلا نكهة. كلّ ما يعرفه أنه لم يعد يراها، لم يعد يسمعها، إنها تتلاشى بطريقة ما. أصبحت كالمزهرية التي تصرّ على وضعها على طاولة الطعام، خالية من أي زهرة.

مرّ أمام عينيه شريطٌ من الذكريات   عندما رآها أول مرة بصحبة أخته، كانت تطابق تمامًا الصورة المثالية التي رسمها لشريكة حياته. طويلة، جميلة القوام، ثلجية اللون بشعر فاحم قصير، الشعر القصير كان أحد شروطه المهمة. وقتها كانت زهرة على عتبات

التخرج من الجامعة، تقدم إلى خطبتها سريعًا خوفًا من أن يخطفها غيره. ووافقت بلا تردد. بعد شهور، خلعت روب التخرج الأسود لتلبس الفستان الأبيض، في عرس مهيب تكلمت عنه الكويت لأيام. لم يكن العريس المثالي الذي حلم به أبوها. ودّ لو كان العريس بلحية أطول أو دشداشة أقصر، مثله، لكن بدا له أنه كان يريد أن يخلص من زهرة وجنونها بأسرع وقت، وكان لاسم عائلة العريس فضلٌ أغراه فوافق.

السنوات الأولى من زواجهما كانت سعيدة، ومزدحمة بطريقة أخرت كثيرًا موضوع التفكير في انسجامهما الحقيقي. وفّر لها كلّ شيء رغم بداياته المتعثرة آنذاك. زهرة كانت قنوعة وغير متطلبة. كلّ ما كانت تحتاجه بيتًا يضمها معه وولديها، بعيدًا عن بيت أهلها. حملت بتوأم بعد ستة أشهر من الزواج لتنشغل بهما عن العالم بأكمله. وكمن يعصًر كلّ ما به، منحت ما تملكه من حبّ وحنان لسالم وسارة. كان عادل سعيدًا بتفانيها مع الأولاد، بداية، ولانشغالها عنه، فيما بعد. تذكر أنها كانت تحبه. لماذا مات حبها؟ يقولون الحب لا يموت ميتة طبيعية، يموت من الألم والقهر والخيانات، يموت من الأذى والجروح والتعب. بأي عذر مات؟

بعد يوم مرهق، عاد ليجدها تجلس على الأرض وسط كومة من المحارم المبلّلة أمام التلفاز. لم يفكر كثيرًا، فنظرة واحدة للشاشة التي أمامه كفيلة بأن يعرفَ مدى حزنها، لكنّ هشاشتها أمام ما يحدث يزيده حنقًا عليها وسخطاً. شرحت له القضية، فاستشاط غضبًا:

ألن تكفّي عن هذه التفاهات؟ ألن تكبّري عقلك وتحاولي أن تثقفي نفسك قليلاً؟

كانت المرارةُ تملأ روحها وتغصّ بها مع كلّ حرفٍ منه. كان الصمتُ دليلها على أنه لن ينزع قلبه الصخرة ولن يتحسس حزنها يومًا، لذا آثرت أن لا ترد، وماذا ترد على إنسانٍ لم يظلّ منه غير اسمه بعد أن نزع الرحمة من قلبه؟. ماذا تقول لإنسان لا يشمُّ معها رائحة الدم المحروق عبر هذي الشاشة اللعينة؟ وهل ينفعُ الصوتُ لو نطق بحروفه مع شخص لا تنبعثُ منه غير رائحة اللؤم...؟ مسحت دمع عينيها من جديد وعادت إلى منظر أشلاء الأطفال تحت ركام عمارة في سوريا.

زهرة، اصحي. هذه كلها مؤامرات، لا هي ثورة ولا انتفاضة ولا هم يحزنون. هؤلاء حفنة من الإرهابيين، يريدون الاستيلاء على السلطة كي يقيموا إمارتهم الإسلامية ليجزوا رؤوس كلّ من يختلف معهم، ويرجعوا بسوريا مئة سنة... بل ألف سنة إلى الوراء.

لا تحب نقاشه، تخرج خاسرة من أي حوار يدور بينهما. نظرت إليه بين وجع ووجع، فتابع:

هذا إعلام مأجور يهول لكم الصورة. بالأمس كان عندي عميل سوري وصل من سوريا منذ أيام، قال لي: إن الوضع هناك عادي جداً!

لعنته بسرّها متهكمةً عليه: «إي نعم لا بدّ أنه عميل موالٍ بما أنه يتعامل معك». لم تستسلم هذه المرة إذ الموضوع يخص أطفالاً لا ذنب لهم فقالت:

تلوم الإعلام؟ طيب، هل هذه الجثث رسوم متحركة؟ هل ذنبهم أنهم أرادوا الحرية وخرجوا يبحثون عنها بصدورهم العارية؟

هل أجرموا أنهم أرادوا انتخابات شرعية نزيهة بلا 99.9 % فتصدوا لهم بالرصاص والبراميل المتفجرة؟

نزع عن رأسه عقاله وغترته، نفضهما في الهواء وردّ بعصبية:

اوووو.. أنت لا فائدة من النقاش معك.

بلا مبالاة، تركها تتجه إلى المطبخ مع دموعها بينما دخل غرفته وراح يغيّر ثيابه، لينتقل إلى غرفة أسراره المكتب، لإنهاء ما كان ابتدأه منذ الصباح... العمل.

ليس هناك ما يغريها لتغيير معاملتها له، إذ تتعامل معه بمنطق الأصول بلا اكتراث لشيء آخر. تقوم بما يُعرَف بالواجب بلا إضافات، وكي تنهي الواجب فهي تتفانى في تحضيره كما يريد هو كي لا تترك ما يستدعيها لإعادته أو للاعتذار على التقصير فيه. أمسكت الجدول الصحيّ المفروض عليها من زوجها لتحضر العشاء. اليوم، بحسب الجدول، عليهما تناول الدجاج المشوي.

منذ أن اقتنع عادل بالحمية الصحية، أصبحت وجباتهم تتناوب ما بين السمك والدجاج واللحم إلى جانب السلطات. لم تعترض على قوانينه، وخاصة فيما يتعلق بالطعام، فمنذ طفولتها كان الأكل بالنسبة لها واجبًا مفروضًا يفتقد للمتعة. ضعف شهيتها ووزنها الأقل من المعتاد قادها إلى عيادات التغذية، والكثير من الأقراص بلا فائدة. تشعر أحيانًا أن جسدها يقتات على غضبها وحزنها وما يشتعل داخل روحها.

نادته، لتراه خارجًا من غرفته مصطحبًا جهاز (الآيباد). الى طاولة الطعام ودون أن ينظر اليها جلس يأكل وعيناه على الشاشة:

- اتصلت سارة بي اليوم، تقول إنها تحتاج إلى مبلغ إضافي لرحلة ستقوم بها مع الجامعة تجول بها أوروبا في شهر أغسطس القادم.

- كم تريد؟

وعلى غير عادتها ردّت بعصبية:

- ليس المهم كم تريد، ألا يهمك أن ابنتك ستقطع أوروبا وحدها وهي بهذه السن؟

وما المشكلة في ذلك يا مدام؟ أليست هي هناك لتدرس وتعيش؟ أم إنهم نقلوا باريس إلى الشرق الأوسط؟

أجابت محاولة الدفاع عن وجهة نظرها:

- هي هناك مع أخيها. لكن أن تدور من بلد لآخر دون حسيب ولا رقيب فهذا غير مقبول.

سرقها الحنين لحظة، تمنت ان عادل غير موجود فيها لتطلق العنان لدموعها. ها هي هي رائحةُ الـ «Baby oil» تغزو كلّ حواسها، هذي ذاتها الرائحة التي كانت تشمها بين ثنايا جسديهما. كم كبرا بسرعة. بالأمس فقط كانت تغير حفاضاتهما وترضعهما وتغني لهما قبل النوم وها هما الآن يكملان دراستهما في فرنسا. لم تكن لتدع سارة تسافر لو لم يصحبها سالم. كان يودّ أن يلتحق بجامعة أمريكية لكن عندما وصل قبول سارة من السوربون، اقتنع، أو هي أقنعته أن يقدم أوراقه لفرنسا، حتى يُسمح لها بالسفر. لم تكن زهرة مقتنعة بسفر

البنت وحدها، فالغربة بالنسبة لها كانت وحشًا مخيفًا لم تضطر لمواجهته يومًا، لكن وجود أخيها معها ورغبات زوجها كسرت حواجزها.

حاول أن يهدئ نفسه قبل أن يرد عليها لكن الكلمات خرجت من فمه سريعة:

سارة تعيش ﴿ باريس منذ ثلاث سنوات. البنت عاقلة وواعية. كلّ ما يمكنها أن تفعله ﴿ باريس أو ﴿ أي بقعة ﴿ العالم، تستطيع أن تفعله هنا إن أرادت! إلى متى ستظلين ساذجة؟ احمدي ربك أنها لم ترث جيناتك وجينات أهلك.

لم يكن جوابه غريبًا بل كان متوقعًا أن يردّ عليها ببلادته المعروفة لديها، لكنّ رده زاد من غصتها، وما الغصات إلاّ بقايا أحاسيس سجينة عاجزة عن التعبير. سحبتٍ ما تبقى من روحها المُهانة. أطلق قلبها تنهيدة كالنار. نهضت بما أُوتيت من وجعٍ لتتركه برفقة (الآيباد).

3

ليمون

شمسُ الأحد، وإطلالة أسبوع جديد. عليها أن تنفض أحزان روحها وتنسى كلام عادل الذي عكّر مزاجها طوال الليل، وتستعد للعمل. لم تكن ليلتها أسوأ من سابقاتها، فالنوم ليس صديقها الحميم. لطالما عاند جفنيها، وتركها تتقلب في وحشة فراشها. تحدق في العَتمة متسائلةً عن معنى الحياة والموت وغاية الأَلم والعذاب. كانت، في العادة، تنام لساعة أو اثنتين ثم تنهض فجأة وتدخل الحمام، تبقى فيه لدقائق، تفتح حنفية الماء تغسل وجهها محاولة تنظيف وسخ؛ كأنها عانت منه منذ زمن بعيد، ثم تعود إلى فراشها لتحارب الأرق.

قامت من فراشها مسرعة، فأحسّت بدوخة خفيفة. تعوّدت، ضغط دمها المنخفض يجعل دورتها الدموية بطيئة ويؤخّر ضخ الدم إلى رأسها. جلست قليلاً على طرف سريرها كما علمها الطبيب، ثم أدخلت قدميها الصغيرتين في نعالها المنزلي ذي الوردتين المبتسمتين، الذي أهدته لها سارة في آخر زيارة لها، ابتسمت لهما وقامت إلى الحمام لتغتسل.

وقفت تحت الماء لمدة طويلة، دون أن تشعر، راحت أفكارها تأخذها وتعيدها إلى قرارها. «يا له من قرار. ينبغي أن تنتهي هذه اللعبة وإلى الأبد، سأخونه!». تجربتها الأولى كانت عندما دخل «الغاليري»

رجل ادعى أنه يريد شراء لوحة لبيته الجديد. أصرّ على تكرار كلمة الجديد لسبب ما. تجول بين المعروضات ولم يعجبه شيء. طلب أن يرى لوحات أخرى. ظل يروح ويجيء إلى المعرض على مدى أسبوعين، إلى أن تجرأ ذات يوم واتصل بهاتفها المحمول. سألته عن كيفية حصوله على الرقم، فأجابها الجواب المعتاد، «اللي يسأل ما يضيع». كان غريبًا ومثيرًا للاهتمام، يعرف عنها وعن زوجها وعائلتها الكثير. حدثته عدة مرات، إلى أن طلب لقائها خارج المعرض، كانت على وشك الموافقة بعد أن أثار فضولها وأصبحت تميل إلى الاعتقاد بأن هذا الرجل يحمل سرًّا ما يخصها. بدا كمن كُلِّف بمهمة. وجهه «الروبوتي» يدل على أنه بصدد تنفيذ عملية سرية. ومع ذلك لم تستبعد أن يكون كأي رجل (نسونجي) عادي. اعتذرت منه بالعذر الأسهل «أنا امرأة متزوجة».

ما بها.. تقترب خطوتين من مخططها وتتراجع خطوة؟ أي قرار هذا وأي مشروع تنوي عمله وهي لا تملك الشجاعة على خوضه؟ كانت تستغرب جبنها وضعفها، وتستغرب أكثر تحرشات الرجال بها. ما حاجتهم إلى امرأة أربعينية وبنات العشرين (الخمطة بدينار) كما تقول صديقتها منيرة!

وصلت «الغاليري» متأخرة عن موعدها المعتاد، بسبب الزحمة الخانقة في الشوارع. لم تفرغ الكويت من سكانها بعد. بداية يونيو/ حزيران هي فترة الامتحانات، بعدها بأسابيع تبدأ عصافير الديرةٍ بالهجرة إلى مصايفها. في السابق كانت لبنان وسوريا والقاهرة ملجأ للكثير من الكويتيين متوسطي الدخل، لكن بعد ثورات الربيع العربي، توجهوا شرقًا، إلى دول شرق آسيا، والميسورون منهم غربًا إلى أوروبا وأميركا. زهرة تحب صيف الكويت، لا يضايقها به إلاّ الغبار فقط. المدينة تهدأ وتفرغ وتكون أكثر سلامًا ونقاءً. تخف زحمة الشوارع

والمجمعات، تقل الواجبات الاجتماعية والأسرية، تصفو النفوس إلى بعضها. الشرط الوحيد، لأي كائن كي يستمر بالعيش خلال هذه الفترة، هو أن يجد مكانًا ليركن سيارته تحت ظل أي شيء. شجرة، بناية، مرآب. المهم ألا تترك السيارة تحت سلطة الشمس التي لا ترحم، فالعودة لها تحت درجة حرارة خمسين درجة مئوية، تكون أشبه بالدخول إلى تنور.

دخلت مكتبها الصغير في زاوية «الغاليري». بعد مرور السنين وبعد أن سافر ولداها للدراسة في باريس، لم يعترض عادل حين قررت العمل لتشغل وقتها، ولتنشغل عنه ربما. افتتحت صالة عرض فني (غاليري) في وسط العاصمة. ومن حسن حظها، أصبحت في وقت قصير قبلة الفنانين والعارضين ومحبي الفن. شكّل «الغاليري» لها ملجأ. صممت ديكوره بحبّ، وزرعت جدرانه بالألوان التي حرمت منها في بيتها. تعمل براحتها وحسب أوقاتها، لديها مساعدان، بالإضافة إلى حميد الأعرج، الفنان المعروف، وصديقها الأقرب الذي يمدها بالأعمال الفنية، ويعطيها دروسا خاصة حول تاريخ الفن والفنانين. شعور جديد تستمتع به وهي في طريقها إلى عملها كلّ صباح. شعور بأهمية افتقدتها بعد دور الأم... الدور الذي انتهى كما يبدو.

قطع حميد، بدخوله مكتبها، شريط أفكارها. هبّت عليها رائحة الليمون التي يتعطر بها. تنبئها بحضوره قبل ظهوره، وعادة ما يترك شيئًا منها بعد خروجه. رائحة منعشة وطازجة تحبها وتحبه. شاب لطيف يبالغ في أناقته وهوسه بنظافته. كان يلبس بنطال جينز صنع حديثًا ليبدو قديمًا مهترئًا، وتي شيرت وردي اللون، وقد ربط شعره الطويل من الخلف على هيئة ذيل الفَرس. له ابتسامة رائعة تكشف عن صف من الأسنان البيضاء اللامعة. رغم قصره، يبدو وسيمًا، «ليته لم

يكن منهم» همست في سرّها وهي تبتسم مرحبة به.

وضع عددًا من اللوحات صغيرة الحجم على مكتب زهرة وقال بحزم:

- هذه لوحات لأطفال أريدك أن تهتمي بها.
- أطفال؟ هل ستجعلني أتبناهم؟
- ربما ستضطرين أن تتبنيني أنا عوضًا عنهم.

قالها وهو يضحك ضحكته المائعة التي يحاول ألا تفلت منه في العلن. كان دائمًا يضحك. فرحًا، حزينًا وغاضبًا يضحك، قناعًا يداري به وجعه. يمثل دورًا أمام الناس يختلف تمامًا عن حقيقته التي يتركها تتسرب أمام أصدقائه المقربين.

لم يع حميد كينونته إلاّ بعد أن تجاوز عمر المراهقة. في طفولته كان منزويًاَ، قلما يلعب مع أقرانه، وغالبًا ما يجلس في غرفته وحيدًا. حكى لها مرة أن أفضل أصدقائه كانت علبة عصير البرتقال التي كان يصحبها معه إلى المدرسة. كلّ يوم أثناء الفرصة، ينزوي معها ليستمتع بشمس الشتاء الدافئة بعيدًا عن أعين الأولاد الذين كانوا يسخرون منه. إلى أن أتى اليوم الذي انقلبت به سخريتهم إلى اعتداء جسدي حفر آثاره في روحه إلى اليوم. انسحب تدريجيًا إلى الداخل، واستبدل الأصدقاء بالريشة والألوان. معظم الأهل والأقارب فسروا عزلته لكونه وحيد أبويه، بعد أن عجزت أمه عن الحمل بطفلٍ ثانٍ، فبقي حميد النور الوحيد الذي ترى من خلاله الدنيا. كان طفلاً جميلاً، لكنه لم ينمُ بالشكل الكافي ليصبح رجلاً ولم يتدور بالشكل الكافي ليصبح امرأة. ظل متأرجحًا بين الاثنين، لا هو ذاك ولا هو تلك، فأصبح منبوذًا من الجنسين.

درس حميد الفنون في الجامعة الأميركية بالقاهرة، ثم انتقل إلى أميركا لينال درجة الماجستير في الفنون الجميلة من أكاديمية نيويورك للفنون. وبالرغم من أنه هناك فقط استطاع أن يتمتع بحريته ويعيش حقيقته دون محاذير وضوابط، لم يحب أميركا يومًا، ولم يستطع التأقلم معها. عاش حميد في نيويورك أول قصة حب حقيقية مع زميل له في الجامعة من كولومبيا، لكن العلاقة كانت من طرف واحد. حكى لها يومًا عن باولو حبّه الأول والوحيد. تعلق حميد به كان بلا أمل. مشكلة باولو أنه لم يكن من صنف حميد. لكن تلك الحيثية لم تمنع حميدًا من الوقوع في حبه ولو عن بعد. أما هي فكانت متأكدة لو أن باولو بادل حميدًا الحب، لما عاد الأخير إلى الكويت.

ابتسمت له بحبّ، وردّت ساخرة:

- خير؟ تبرّوا أهلك منك؟

- أعتقد أن أبي سيفعل قريبًا.

- هل كشفك؟

جلس على الكرسي بجانب مكتبها، ورفع ساقيه على الكرسي المقابل. أشعل سيجارة، سحب نفسًا أطلقه بالكامل في الهواء، وتنهد بعمق:

- وهل تعتقدين أنه لم يكتشفني بعد؟ هو لا يهمه ما أنا، يهمه ما هو. تخيفه فضيحته، وما دمت محافظًا على سرية وضعي، فهو مرتاح.

لوحت بيديها محاولة تفادي دخان سيجارته وهي تتأفّف:

- ما الجديد إذًا؟

- لا أدري. ربما (سمَّعه) أحد معارفه أو أصدقائه في الديوانية كلمة عني. أو أن أحدهم سرب له خبر حفلة الأسبوع الماضي. لا أدري لماذا فاحت القصة لهذه الدرجة، الكل يتكلم عنها؟.

ردّت بعتبٍ:

- أنتم مجانين؟ هل من الضروري أن تفضحوا أنفسكم بهذه الطريقة؟ ألا تعلمون أنهم اخترعوا قانوناً ضدكم ويمكنهم اعتقالكم وسجنكم بتهمة «التشبه بالجنس الآخر»؟ حفلة وموسيقى ورقص وشرب وفي البر، أي في مكان عام، يعني أرض دولة يا أستاذ، ولا تريد أن يصل الخبر إلى أهلك؟ احمد ربك أنهم لم ينشروا صوركم في الصحف. يعني «إذا ابتليتم فاستتروا»!

خفض رأسه وتمتم بصوت لا يكاد يسمع:

- يا ستي. إن كانت بلوة فهي من الله ولا دخل لنا بها. يعني أنا لا أفهم كيف لهم معاقبتنا على مشيئة الله بنا. كيف يفسرون هذا التعسف!

اشتمت زهرة رائحة الأسى في حروف صديقها. شعرت بالحرج. وضعت يدها على يده واعتذرت منه:

- أنا آسفة، لم أقصد جرحك، لكنك تعلم العقليات هنا. أنا لا أفهم حقيقتكم رغم قراءتي لكثير من الدراسات، لكن هم لا يفهمونها سوى أنها نزوات خليعة، وشهوات مريضة، وعليهم أن يطهروا المجتمعات منها.

نظر حميد إلى يد زهرة فوق يده باستغراب:

- أراك تتحسنين. هل شفيت من رهابك الفظيع؟

ضحكت:

- هو ليس رهابًا يا همودي. أنا لا أكره اللمس. ينتابني الذعر إن لُمست على غفلة مني. لا أتحمّل اللمس مباغتة. شعور سخيف، لكني متعايشة معه. تصدق حتى عندما كانت سارة وسالم طفلين، كنت أعاني من هذه المسألة، وخاصة أن اللمس للصغار يكون بمثابة أداة أمان. لكني مع الوقت تعودت على لمسهم فقط.

بخبث قال:

- طيّب على سيرة اللمس.. ما أخبار مشروعك؟

فهمت قصده، ابتسمت بغنجٍ قائلة:

- لم أجد الضحية المناسبة بعد.

- أنت مجنونة. هذه المشاريع لا تُقضى هكذا. لا يمكنك أن تخططي لخيانة، إلا إذا أردت أن تعملي عاهرة، عندها تقبضين مقابل ما تنوين عمله. أنت تحتاجين علاقة فيها عاطفة وحب وشيء يملأ حياتك، مثلي تمامًا، وهذه لا يُبحث عنها، انما تحدث بالصدفة. ثم ألا تخافين من (التيس) اللي عندك أن ينتبه أو يكتشف خططك؟

- تبي الصج؟ هو لا يراني أصلاً لينتبه إلى شيء. تدري؟ عندي إحساس بأنه حتى لو اكتشف الأمر، فسيغض النظر، ويعمل نفسه مو شايف.

- طيب ألم تسألي نفسك لماذا؟ لماذا يحتمل هذه الحياة؟ لماذا لا يطلقك ويعيش حياته كما يريد؟

- يا عزيزي هو عايش حياته كما يريد، ولا شيء يمكن أن

يكدره. وجودي في حياته مجرد اكسسوار اجتماعي يحافظ على صورته المحترمة أمام المجتمع وعملائه. يمكنك أن تعتبرني المنديل الملون الذي يضعه في جيب جاكيته العلوي. مجرد شكل لا فائدة منه.

- غريب هذا الرجل، صحيح أني لا أحبه كثيرًا، لكني لا أراه بهذا السوء.

- أنت لا تحتاج منه ما أحتاج أنا. عادل ليس من عالمنا. كيف أشرح لك؟ هو بعيد. عادل لا ينتمي إلى هذا المجتمع ولا إلى هذه البقعة من العالم. طموحه عالمي وأحلامه كونية. هو لا يفهمني ولا يفهم احتياجاتي.

- يا حبيبتي... ليس هناك رجل يفهم المرأة، ففي كلّ امرأة القليل من الغموض، وفي كلّ رجل بعض الغباء يمنعه من فهم هذا الغموض. تلك هي حال كلّ نساء العالم.

ضحكت لردّه قائلة:

- ما شاء الله، لم تكتف بالفن، أصبحت فيلسوفًا أيضًا!

طال حديثهما، فانتبه للوقت، اعتذر منها كونه مضطرًا لأخذ ابنته من الحضانة اليوم بدلاً من أمها المرتبطة بموعد طبيب. حملت سلوى مرة أخرى. «أبي يريد صبيًّا يحمل اسم العائلة»، هكذا قال لها عندما سألته عن سبب استعجال زوجته بالحمل بعد ابنته الأولى التي لم يتجاوز عمرها السنتين. لم تفهم زهرة ولن تفهم بالرغم من كل التفسيرات التي حاول حميد توضيحها لها، كيف له ان يتزوج من امرأة وهو على هذه الشاكلة؟ والأدهى كيف لامرأة أن ترضى بالزواج منه؟ لكنها تراه يعيش عيشة راضية وإن لم تكن سعيدة.

عندما فجر خبر نية زواجه منذ بضع سنوات، صعقت. لم تصدق أنه يمكن له أن يفعلها، لكن إصرار والده وتوسلات والدته دفعته للإقدام على تلك الخطوة. انتقتها أمه من معارفها أثناء حفل زواج قريبة لها. كانت الأكثر رقصاً. فتاة جميلة لم تنه تعليمها الجامعي، فجلست في البيت تنتظر النصيب. وأتى النصيب على شكل حميد. «أشفق عليها»، قال لها مرة عندما سألته زهرة عن شعوره تجاه زوجته. «هي فتاة بسيطة، ومطالبها مقدور عليه: مال، مجوهرات، سفر، عز... وكلّ هذا متوفر.

- وأنت؟

- أنا أدبّر نفسي في حياتي الأخرى بعيدًا عن العائلة.

نهض ليخرج، فانتبهت للوحات على الطاولة، فصرخت به:

-انتظر... ما هذه اللوحات؟

شرح لها على عجلٍ أنها عيّنة من لوحات لطلاب مدرسة الشمس الابتدائية. حيث أجرت المدرسة في نهاية السنة مسابقة فنية للطلاب، بالتعاون مع جمعية أم الخير، لمعرض فني من أجل أطفال سوريا، ومنذ ذلك الوقت وهم يبحثون عن مكان لإقامة معرضهم. طلب منها أن تفكر بالأمر، وودعها خارجًا بعد أن ترك رذاذًا من عطر الليمون يملأ فضاء المكتب.

ارتج سطح مكتبها، رفعت هاتفها. رسالة من عادل: «سأتأخر في العودة للمنزل الليلة، عندي ضيوف من الخارج وسأدعوهم إلى العشاء في مطعمٍ (ايدو) الياباني. إن كنت تودين يمكنك الالتحاق بنا». لم ترسل رداً. هي تعلم تمامًا بأنه لا يودّ وجودها. هي نفسها أصبحت لا تود وجوده.

اختلطت في رأسها نداءات المآذن لصلاة العصر تصلها من عدة مساجد حولها. نداء باللكنة العربية، وآخر بالبنغالية، وثالث بالمصرية. شعرت بالسكون داخلها. خرجتْ من الغاليري، لفحها هواء حارّ وكأنه ينبعث من موقد. ركبت سيارتها، التي لم تجد لها مكانًا في المرآب، صباحًا، فركنتها تحت الشمس. سيارتها صديقتها الصدوقة والتي تتحمّلها بكلّ حالاتها، كان الهواء فيها يغلي ويتبخر كقدر ماء فوق نار جائعة. لسعتها حرارة الكرسي تحتها، نظرت إلى مؤشر الحرارة، فوجدته يتعدى التسع وأربعين درجة مئوية. فتحت النوافذ قليلاً لتحرك الهواء الساخن في الداخل، ثم أغلقتها وأدارت جهاز التكييف. رغم تأففها من الحرارة والعرق، انطلقت في مشوارها. عادت إلى شارعها المفضل، شارع الخليج. مرت بأبراج الكويت. لطالما رأتهم كـ «ماما وبابا وبيبي». ابتسمت ثم عبست. لماذا تقتحمها الأمومة دائماً؟ حتى في أصعب الأوقات. أدارت الراديو فخرج صوت المذيعة الثقيل الذي يزعج أذنيها. أقفلته ووضعت (سي دي) لعبد المجيد عبد اللّه وراحت تدندن معه «تنتظر كلمة أحبك.. شايفك مشغول فيها».

عند إشارة مرور تقاطع شارع الخليج بالدائري الثالث، توقفت بانتظار الإشارة الخضراء. سيارة فارهة توقفت بجانبها. شاب في أوائل عشرينياته يحاول أن (يرقمها). يلوّح بيديه في الهواء حاملاً ورقة برقم هاتفه المدوّن عليها مسبقًا كما العادة. فتحت نافذتها ضاحكة ثم تجرأت وقالت:

- تدري أني بعمر أمك؟

أتاها ردّه صادمًا ومضحكًا:

- أي وشنو يعني؟ خبرة.. تنفع!

لم تستطع تمالك نفسها. أغلقت نافذتها غارقة في الضحك، مسرعة بالفرار عند تحول الإشارة للون الأخضر. راحت تفكّر ساخرة: هل ممكن اعتباري من الخبيرات؟ هل يمكن لهذه الوصلات السريرية أن تُسمى خبرة؟ بالنسبة لها هو الوضع ذاته، بالحركات ذاتها بالنهاية ذاتها، لا كلمات، لا مشاعر، لا تجديد. عمل روتيني ينتهي قبل أن يبدأ. هل هذه تحسب عند الخبراء خبرة؟

أكملت طريقها على شارع الخليج. الطريق ليس خاليًا كما كان في السابق. كان الكويتيون يختبئون في منازلهم في هذا الوقت من النهار تجنبًا لحرارة الجوّ، وعادة ما يقضون الفترة نيامًا بعد وجبة الغداء، لكن يبدو أنهم تأقلموا مع مناخ بلدهم وتعودوا عليه. كلّ شيء عادة، سرحت تفكر: الحرارة، البرودة، الفرح، الحزن، كلّ شيء يمكننا أن نتعوّد عليه.. إلاّ الفقد يأتي فجأة ولا يمنحنا الفرصة للتعود.

وصلت إلى منطقة السالمية، عند مجمع الفنار، دخلت شارعًا فرعيًا ضيقًا، ومنه إلى حارة بين عمارات قديمة. أمام عمارة متهالكة، ركنت سيارتها. تلفتت يمنةً ويسرةً، ألقت نظرة سريعة في مرآتها، أحكمت وضع نظارتها، فتحت درج السيارة الصغير. تناولت كيسًا، سحبت منه عباءتها. وضعتها على رأسها شدت طرفيها وأحكمت لفها حول وجهها، تناولت كتيبات صغيرة من الكرسي الخلفي للسيارة، وضعتهم تحت إبطها... ونزلت.

4

دهن العود

يوم جديد ووجع جديد. الغبارُ يعرفُ طريقه اليها، فقد تنشّقت رائحته وهي ما زالت تتململ في فراشها. عندما خرجت، كانت العاصفة الرملية قد حجبت زرقة السماء، واختفت الشمس وراء غيوم غبارية كثيفة، مما زاد من صفرة مزاجها. تقول الأخبار: إن المطار والموانئ ربما تتوقف عن العمل اليوم.

زحف نهارها، كعادته، بطيئًا... مملاً. أنهت بضعة أمور في «الغاليري»، ولم تستطع الاستمرار، فهذا الكائنُ العابثُ بمزاجها اليوم يعلن انتصاره عليها. هذا الغبار الذي ملأ رئتيها يذكرها كثيرًا بعادل كم يتشابهان حين يسدان عليها منافذ روحها. فكّرت بالخروج مع إحدى صديقاتها لتبعد عنها وحشة الجو، وبلا تردد طلبت سعاد، فأخبرتها بأنها التحقت بدورة طبية لوزارة الصحة، ولن تنتهي قبل السابعة مساء. حاولت مع منيرة، اعتذرت منها لكونها مشغولة بالتصفيق لابنتها في الحفل الموسيقي في النادي الصيفي.

لا بدّ من وجود بدائلَ عن الصديقات، تمتمت وهي تحاول أن تشغل نفسها ببعض الأمور، أجابت على بعض الرسائل الالكترونية حتى تجاوزت الساعة الرابعة كلّ شيء بات يخنقها حتى اللوحات المرمية على أرضية المعرض بانتظار يدٍ تنتشلها، تنظفها، ثم تعلقها

لتصبح بهيّةً للناظرين.

« من سينتشلني من ضياعي وحيرتي؟ وأي يدٍ قادرة على تلميع ما أعطبته السنين؟» تَمْتَمتْ بوجعٍ قبل أن تحمل حقيبتها وتهرب من الغاليري لا تدري إلى أين!

باتجاه سيارتها، سرقتها رائحة بخور وعود من محل العطورات في نهاية الشارع. اشتاقت لحضن أمها. لرائحة دهن العود التي اعتادت على شمِّها في صدرها. لكنها كلما تذكرت أخواتها ودروسهن الدينية ونظراتهن المتعالية، انكمشت على نفسها وعدلت عن الذهاب: «لا يفوِّتن فرصةً لإلقاء المواعظ: «لماذا تفعلين هذا، ولم تلبسين ذاك، ومتى سيهديك الله وتتحجبين». لكن، بالرغم من كلّ ذلك، قررت أن تزورهم. احتياجها لحضن أمها الدافئ كان أكبر من ملاحظاتهن وتوجيهاتهن. أمها التي شكّلت لها الحنان والسند التي لم تكن لتحتمل حياتها دونهما.

سلكت طريق الدائري الثاني، باتجاه منطقة القادسية. هذا الطريق، راحت تفكّر: «يسمونه شارع الحب، رغم أنه يحوي كلّ شيء سوى الحب! يكتظ بالشباب، البنات، الغزل، الجنون، المجون وحوادث السيارات، وتطل عليه أرقى ضواحي الكويت، لكنه بلا حب».

«لا بدّ أنهن مجتمعات حول استكانات الشاي الآن. هي ذاتها اللقاءات المكررة. الأحاديث نفسها، طعم الشاي نفسه، الحلوى نفسها، والشكوى نفسها.. لا شيء يتغير».

كانت تلتحق بهن إلى هذه الاجتماعات أوائل سني زواجها، وخاصة بعد أن أنجبت توأمها. كانت زيارتها لبيت أهلها حاجة عاطفية لها ولطفليها لم تستطع الاستغناء عنها بسهولة، لكن بعد أن كبرا بدأت

سارة تشعر بالضيق من توجيهات خالاتها لها وتأنيبها على سفورها ودعوتها للحجاب!

كانت زهرة ترى في سارة نسخة عنها، بضعفها وانكسارها. لا تجيد الدفاع عن نفسها وتترك للآخرين فرصة الاستقواء عليها، بعكس سالم الذي كان كفيلاً بالدفاع عن نفسه وعن أخته بضراوة. هل كان الولدان نسخة مصغرة عن زهرة وعادل؟ كانوا، كلما ذهبوا لزيارة بيت الجدة، يوم العطلة، تعود سارة بعينين دامعتين فيستشيط سالم غضبًا من أخته ويؤنبها لأنها لم تتخذ موقفًا أمام خالاتها، ولم تدافع عن نفسها، يقول لها: الناس تهاب الأقوياء.

وصلت بيت أهلها الصغير. وكمن يمشي داخل حقل ألغام، تمشي بحذر، وكأن قدميها لم تطآ المكان يومًا. دلفت إلى الداخل لتصفعها العتمة الباهرة في جنبات المكان. انقبض قلبها. هي ذاتها العتمة التي كان يضيق بها صدرها وتكتم أنفاسها في شبابها. منذ ذاك اليوم الأسود، فرض أبوها إسدال الستائر على كلّ نوافذ البيت، وستائر أخرى غير مرئية على حريمه، أمها وبناته الأربع. عقاب أنزله بهن بعد أن أمسى الذكر الوحيد في البيت عقب رحيل أخيها.

فجأة فُتح شق في بطانة الذاكرة؛ ومرّ جاسم أخوها الوحيد وقرة عين والديها. «حظي بالج على خواتي، أنا سألتحق بوحدتي، العراقيون دخلوا الكويت». كانت آخر جملة قالها لأمه قبل أن يركب سيارته ويغادر باتجاه رئاسة الأركان العامة للجيش صباح الخميس الثاني من أغسطس/آب 1990. العراقيون أغلقوا الطريق العام المؤدي إلى مدينة الكويت ومنطقة (جي 1) التي تستقر بها وزارة الدفاع الكويتية قرب منطقة الشويخ. الأدخنة تتصاعد من رئاسة الأركان، الطيران العمودي العراقي يقصف الدبابات الكويتية داخلها، غموض

يلف البلاد حول مصير القيادة، صمت خليجي، لبنان أول من يندد بانتهاك حرمة الأراضي الكويتية، العراق يدفع بمزيد من قوات الحرس الجمهوري ليحكم سيطرته، احتل معسكرات الجيش، في العاشرة صباحًا احتل وزارة الدفاع. صوت ولي العهد يطل من إذاعة متنقلة يطمئن الكويتيين. تتوالى الأخبار عن وجود القيادة الكويتية في السعودية. الجيش العراقي يحتل مفاصل الدولة ومؤسساتها، في المساء يطل إعلامي عراقي بالدشداشة والغترة يتحدث بلهجة عراقية عن وجود انقلاب داخلي في الكويت سانده العراقيون. الكويتيون رغم فزعهم اعتبروا أن ما يمر عليهم أعنف وأسخف مسرحية شاهدوها في حياتهم !عاد بعض العسكريين إلى بيوتهم بعد أن طلب منهم العراقيون إلقاء سلاحهم وقمصانهم العسكرية، وبعضهم لم يعد، أم جاسم تنتظر أمام باب البيت، هاتف العمل لا يرد، جاسم تأخر.. الوقت تأخر لم تغمض عينيها، أصرت ألا تحكم غلق الأبواب بالمفاتيح، لأن جاسمًا سيعود. تتحدث إلى نفسها:

- لو بس أعرف إنت وينك الحين يا وليدي، قلبي متواكل عليك.

في التاسعة من صباح الجمعة، طرقات باب قوية، لبست أم جاسم لفتها وعباءتها، آملة أن يكون ابنها. وقفت خلف زوجها بالباب

منو؟

- افتح الباب ولدك معنا!

كقنبلة هائلة دوّت كلمات الضابط في أذن أم جاسم. فتح الأب الباب ليجد ابنه بين يدي اثنين من أفراد الجيش العراقي. ركضت أمه نحوه تعانقه فأبعدها الجنود بقسوة.

- نريد أن ندخل ونفتش غرفته وأغراضه، هذا خائن ويتعامل مع العدوّ ضدنا.

علا صوت أم جاسم لأول مرة في حياتها وهي تصرخ:

- خائن؟ خائن منو؟ هذا وليدي. هدوووه.

فقدت وعيها في لحظة وجع.

عندما أفاقت، كان الأفراد قد عاثوا خرابًا في غرفة جاسم واستولوا على بعض الأوراق والكتب ومسدس صغير. كانوا يجرونه باتجاه الباب، وهو يقاوم بحدّة. قامت وركضت باتجاهه، تعلقت برقبته وهي تصرخ بهم. غصت زهرة وهي تتذكر نظرة جاسم لأمه وكلماته التي همس بها لصدرها وهم يسلخونه عنها: «لا تبكين يمه. أبوس راسج لا تخلين الدموع آخر شي أشوفه بعيونك. افخري بابنك، أنا خاين بعيونهم لأني ما خنت وطني، لي ولكم الشرف».

رموا به إلى داخل السيارة العسكرية... وغابوا.

منذ ذلك اليوم وهي تسمع أنين أمها على وحيدها، وتلك النافذة التي لم تغادرها وهي تنتظر عودته. فجأة، كبرت أمها وهرمت وهي تردد عبارتها الأثيرة، التي يتندرون عليها تارة ويبكون منها أخرى:

- سيعود، قلبي يقول لي إنه آت، وقلب الأم لا يكذب.

لكنه كذب. ولم يعد جاسم. عاد بعض من رفاقه على أرجلهم، والبعض في صناديق. لكن جاسم لم يعد، واعتبر كما الكثيرون من أبناء الكويت، من المفقودين في الحرب. قبعت أمه تعدّ أيامها الباقية، فالأمهات الثكالى، لا يحسبن حياتهن بما عشنه من سنوات، بل بالزمن المتبقي أمامهن ليجتمعن مع أبنائهن الذين ثكلن بهم.

أمران فقط لا تنساهما أمها، أوجاعها وجاسم. «آخ يا أمي لو أستطيع أن احكي لك عن جاسم؟ هل يمكنني أن أنكأ جروحك وأذرها بالملح؟ هل أستطيع أن أذبحك مرتين؟» شعرت بالحنق يتصاعد على نفسها وعلى عائلتها وعلى حياتها بكاملها. همست لنفسها: إن كان حيًّا فهو في الأسر وإن كان ميتًا، هل يمكن أن يكون حيًّا عند ربه بعد كل ما فعله؟»

دخلت الصالة الكئيبة. الأثاث ذاته بقتامة ألوانه البنية وذات الرائحة. الستائر المسدلة، كانت صفراء يومًا، لكنها بهتت مع الزمن والرتابة والحزن. يبدو أن الأثاث وباقي الأشياء تكتسب روح سكان المنزل، تنكسر مثلهم. لوحات قرآنية علقت فوق الجدران. سجادات الصلاة مرمية هنا وهناك، لا يفصل بينها سوى مجلدات القرآن وكتيبات الأدعية. منزل محتشم، محترم، متدين كما أراده أبوها.

بحثت عن أمها، لتجدها جالسةً في زاويتها المعتادة بجانب شباكها الأثير المغلق، أمامها صورة جاسم التي بهتت ألوانها ولم تفارقها يومًا، تضم فاطمة ابنة أختها نادية إلى صدرها وهي تبكي. هرعت زهرة خائفة:

- خير يا أمي.. ماذا هناك؟

- مالت عليكم. صاجة أم سمير الخياطة، كانت دايمًا تقول: همّ البنات للممات.

«تذكرين أم سمير الخياطة التي تركت الكويت منذ الغزو يا أمي وتنسين بنتك حشاشة جوفك؟» همست في سرّها وهي ترفع رأس فاطمة لتجد عيني ابنة أختها وقد غشاهما الدمع. سحبتها من يدها

وضمتها إلى صدرها، شمت رائحة الشامبو في شعرها المبلل، ورائحة الخذلان في روحها:

- خالتي زهرة. أمي تريد أن تسحب أوراقي من مدرستي وتحولها إلى مدرسة أخرى.

- وما المشكلة يا عزيزتي. ربما المدرسة الجديدة أحسن لك.

- لا يا خالتي... أنت تعرفين أمي. هي تريد أن تدخلني إلى مدرسة دينية.

انتفضت متسائلة:

- مدرسة شنو؟

- مدرسة إسلامية يا خالتي... ندرس العربي بالدين والحساب بالدين والعلوم بالدين.

كتمت غيظها وحاولت أن تبرّر لفاطمة تصرفات أمها حتى وإن كانت، شخصياً، غير مقتنعة.

- لا يا فطومة، لا تقولي هذا. أمك تحبك وتريد لك الخير. ربما يكون تفكيرها يختلف عن تفكيرك أو تفكيري، لكن تأكدي أن أي قرار تتخذه هو في نظرها لمصلحتك.

عانقت فاطمة بينما كانت أمها تهز رأسها منفعلة وهي تغادر الصالة متحسسة طريقها على عكازها باتجاه غرفتها المقدسة. وفي لحظة إدراك نادرة راحت تتمتم:

- دين آخر موضة. كلّ عمرنا نعرف الله ونطيع أوامره. كلّ عمرنا نصلي ونصوم ونحج ونزكّي. منذ متى صار عندنا مدارس

دينية ومدارس مو دينية. كلكم ذهبتم إلى مدارس الحكومة التي تدرس الدين والحساب والعربي والعلوم. لكن لا أدري من الذي لعب برؤوسكم.!

- يمه.. انتظري قليلا.. أريد أن اجلس معك.

لم تلتفت أم جاسم، وأكملت طريقها عائدة إلى دهاليز النسيان. «آه يا أمي ليت ذاكرتك تعمل في الأوقات التي نحتاجها. ليتك تذكرين أنك تحبيني، أو فقط أني أحبك وأحتاجك».

بعد مصيبة الكويت الكبرى، انسقن أخواتها الثلاث وراء موجة الصحوة الدينية. اتجه كلّ أفراد عائلتها إلى التزمت والتشدد سعيًا وراء جنة يبدو أن نوالها صعب وتعجيزي، واتجهت هي إلى رفض كلّ ما آمنت به من مقدسات وقوميات وشعارات ورموز، إلاّ الله. هزّ الغزو كلّ كيانها كما فعل مع معظم الكويتيين. أحدث شرخًا كبيرًا في قناعاتها وضعضع مكانها بين أفراد عائلتها إلى حدّ أنهم اتهموها بالكفر وكما أصبحت كلّ تواريخ الكويت تحسب بـ قبل الغزو/ وبعد الغزو، تحولت أوضاعها. كانت الصغيرة قبل الغزو، فأصبحت الفاجرة بعده. كانت المدللة، أصبحت المنبوذة، كانت الجميلة، فأصبحت السافرة. وعندما يئسوا منها، صبوا جام غضبهم على عادل باعتباره ولي أمرها وكان عليه تقويمها وفرض الحجاب عليها، ما جعله ينقم عليهم ويحتقرهم أكثر فأكثر.

فجأة دخلت أختها الكبيرة مريم إلى الصالة قادمة من المطبخ، تسحب ابنها يوسف الذي يتدحرج خلفها، محاولاً اللحاق بها وقد كاد أن يختفي وراء شحوم ودهون أمه. حيت زهرة على مضض وأكملت طريقها إلى الخارج. أرادت زهرة أن تعانق يوسف، أن تقبّله فهو كان

آخر العنقود للعائلة بأكملها. أنجبته مريم بعد سلسلة من الأطفال شغلت بهم حياتها وانشغلت عن وجعها. لكن أختها لم تعطها فرصة للأحضان والقبل. مريم لا تتكلم كثيرًا لأنها إن تكلمت، كفرت. تفوح منها رائحة الحقد دائمًا، ربما على نفسها، ربما على زوجها، وربما على قدرها. آخر مرة سمعتها تتحدّث، قالت:

- لكلّ عائلة بالوعة، وبالوعتنا زهرة!

تحاول زهرة أن تتفهم حالة مريم، فتجربتها كانت قاسية بعد أن وقع بين يديها رسائل غرامية من زوجها لزوجة مسؤول كبير، أثناء فترة الغزو. كانت هي خارج الكويت وعلق هو داخلها. عندما عادت واكتشفت، أصابها ما يشبه الانهيار العصبي. أرادت أن تفضحه، أن تنتقم منه، لكن التفكير بأطفالها منعها. كانت تخرج الرسائل من خزنتها الخاصة كلّ فترة، وتعيد قراءتها في مسلسل قميء تربي به أحقادها، وبدلاً من أن تطلب الطلاق وتهجره، اختبأت تحت الحجاب والنقاب ووكلت أمرها إلى الله. كم كانت جميلة ومرحة عندما تزوجها خالد، وكم كانت أنيقة وكم كانت تحب الحياة. خيانة زوجها أعطبتها وقلبت حياتها رأسًا على عقب. شغلت نفسها بالدروس الدينية وأداء الصلوات المفروض منها والسنة والمحببة وبعض من صلوات هي اختلقتها لتنسى جرحها، ولتتمنى على الله أن يصبرها.

في آخر الصالة انزوت سناء أختها الوسطى «في حالها»، بالكاد تلامس شفتيها «استكانة» الشاي، ولا تكمله كالعادة. نظرت زهرة إلى صينية الشاي والكؤوس المستعملة على الطاولة، (ملة) الماء التي تغسل بها أمها الاستكانات بعد الاستعمال، بقايا مكسرات، كعكة إسفنجية مأكول نصفها، منثور البقصم والبسكوت على السجادة تحت الطاولة.

«لم ولن يتغير شيء في هذا البيت»، هزت رأسها ثم اتجهت لسناء بالحديث:

- خلصتوا الشاي؟

لم ترد، كالعادة. نظرت إليها كأنها لا تراها. وابتسمت.

سناء انفصلت عن زوجها بعد ستة شهور من سعادة لم تكتمل، لم تنجب، ولا أحد غيرها يعرف لماذا تم الطلاق. كانت زهرة تحب حنان أختها على أطفالها وأطفال إخوتها، كانت تملك فائضًا من الحب والعطاء لا تستطيع تلبيتهما إلاّ معهم. تغرقهم بالهدايا، تحكي لهم القصص، تتبرع برعايتهم في حال انشغلت إحدى أخواتها بأمر ما. أما باقي نهاراتها فتخلو إلى نفسها. كانت سناء تعمل موظفة في وزارة العدل، لكنها استقالت بعد طلاقها وأصبحت تأكل وتشرب، تنام وتصحو، تمرض وتشفى، دون أن يشعر بها أحد. تعيش وحدتها على حافة العتمة.

قطعت نادية بدخولها سلسلة الذكريات المؤلمة التي أثارتها دموع فاطمة ونحيبها، وزهرة تتذكر ما مرّ عليها في هذا البيت. بالنسبة لزهرة نادية هي الأقرب شبهًا بها. طويلة، بقوام ممشوق وبشرة بيضاء، وشعر أسود جميل، لا تذكر زهرة آخر مرة رأته دون حجاب. لكن نادية كانت أيضًا أكثر أخواتها بعدًا عنها. كانت نادية فتاة عادية، إلى أن وطدت علاقتها بصديقة سورية في الجامعة. فتاة جميلة، متدينة ومحتشمة، نالت إعجاب العائلة كلها عندما استضافتها أول مرة في بيت العائلة. شيئًا فشيئًا أصبحت هذه الفتاة محور حياة نادية وشغلها الشاغل. بعد فترة وجيزة بدأت تظهر عليها علامات التشدد. كانت تقضي معظم وقتها مع آنستها وثلة من الفتيات يرددن الأناشيد

الدينية، يحكين لبعضهن البعض قصصا وسيرًا، بهتت لكثر ما حُكيت، ويحسبن عدد الحسنات التي يكسبنها كلما سخر منهن أحدهم. لم تكتشف العائلة إلاّ بعد شهور أن نادية انضمت الى جماعة دينية. في واحدة من المرات النادرة التي عادت فيها أمها إلى الحياة، طلبت من زهرة السؤال عن كنه تلك الجماعة التي انتسبت إليها ابنتها. لم تستطع معرفة الكثير نظرًا لما تحيط به الجماعة نفسها من السرية والخصوصية. قيل لها إنها جماعة دعوية، بدأت في سوريا على يد سيدة، ثم انتشرت الدعوة في باقي الدول العربية. إلاّ أن ما يميّزها عن غيرها من الجماعات، هو تعلق المريدات بالمربية أو الشيخة أو (الآنسة) كما يسمونها، إلى درجة تقديسها، كما يقول البعض، لاعتقادهم أنها موحى إليها وملهمة من شدة الوصل بالله.

بالنسبة لنادية، فإنَّ الدين والشريعة كانا محور حياتها، ثم كانت (الآنسة). كانت تستفتي الشرع في كلّ صغيرة وكبيرة من أمور عائلتها حتى أبسطها، وتفرضها عليهم، مما جعلها تبدو الأقسى بين أخواتها. نادية تستبق كلّ موضوع بموعظة دينية، وكلّ استفسار برأي شرعي، وكلّ حادثة بحادثة مماثلة حدثت في زمن الرسول. وإن عجزت، سألت (الآنسة).

ظلت زهرة تسخر وتتهكم من أختها وصديقتها وشيختهما غير مدركة أنه في يوم ما ستكون تحت ظل الآنسة.

همّت لتحييها وفاطمة ما زالت بين ذراعيها. سألتها بأكثر ما استطاعته من لطف، عن سبب بكاء فاطمة.

التفتت نادية بكلّ برود قائلة:

- أفضّل ألا أناقش موضوع فاطمة معك يا زهرة. فأنا أعرف

توجهاتك ولا أريد أن تؤثري سلبًا على ابنتي.

رفعت رأسها مصدومة:

- أنا أؤثّر سلبًا على ابنتك يا نادية؟ أنت أختي وفاطمة وُلدت على يدي. هل تعتقدين أني أريد لها السوء.!

لا لا... ليس لهذه الدرجة. لكن أفضل عدم الخوض في النقاش بهذا الأمر الآن.

عادة لا تجرؤ على تصعيد الجدال مع أخواتها، فما من فائدة، وغالبًا ما تهرب من أي نقاش. ما الذي دفعها لمواجهة نادية اليوم؟

- ولماذا يا أختي؟ هل تعتقدين أن وجود فاطمة في مدرسة إسلامية سيفيدها الآن؟ وهل تغيير محيطها وقلب عالمها وحياتها سيقربها من الله أكثر.

التفتت نادية وقد تفجّر شرر كلماتها:

- وما أدراك أنت يا ست زهرة بأوامر الله؟ لو كنت تعرفينها، لما خرجت نصف عارية هكذا ليستمتع بك كلّ من رآك في الطريق. أنت كالزانية.

تلاشت الكلمات من رأسها. لم تنطق. اقشعرّ بدنها وتغيّرت تقاسيم وجهها. أرادت أن تدافع عن موقفها، عن فاطمة، عن حقها في الاختيار، لكن قبح العبارة وصدمة الكلمات شلت لسانها. ثمَّة مشاعر تخنقك ولا تجد لها منفذًا للتعبير عنها؛ فتلوذ بصمت صاحبها. أخفت ضعفها وألمها، حبست دموعها. حملت حقيبتها... وخرجت.

هدّها تجريح أختها. وجع يودي بها نحو القاع. جرح تشم رائحته

ينفذ من خلايا جسدها. رن جرس هاتفها المحمول. أذاب صوت عادل جليد دمع تحجر في عينيها، وتذكرت حضن أمها الذي لم يتسن لها أن تركن إليه. انفجرت تبكي دون توقف. سألها ما بها. حكت له ما حصل.

صعقها ردّه:

- لا تتدخلي في شؤون غيرك يا زهرة، أختك لا تصلح للنقاش العقلاني. وأنت تعرفين مدى التخلف والجهل الذي نعاني منه في الكويت.

هكذا بكلّ عنجهية وجفاء اختصر المشكلة. لملمت ما استطاعت من شجاعة وردت:

- مو معقول! هل هذا ما استطعت أن تقوله؟ أنت تحسب أن كلّ عربي جاهل وكلّ كويتي متخلف، وكلّ أمريكي متحضر ومتمدن ومثقف. روح تابع الأخبار الأميركية وانظر كمية الجهل والتخلف التي يعاني منها الأميركيون.

قاطعها:

- نعم. لكن في أميركا القانون يحمي الناس من تخلفهم وجهلهم، أما هنا فالقانون وضع ليحمي التخلف والجهل. ثم لا داعي لمناقشة مواضيع كهذه مع أهلك. لا فائدة، ألم تتعلمي بعد؟

عندما ألقت بالهاتف المحمول على الكرسي بجانبها، غزاها شعور غريب من النقمة توزع كالبرق في أنحاء جسدها. كانت تريد منه كلمة (تطيب خاطرها) فوجدته كالبومة ينعق مواعظه ومنطقه الذي لا يتزعزع. أخذت ترتجف غضبًا حتى صارت بالكاد تستطيع التحكم بقيادة السيارة. ركنت سيارتها على كتف الطريق وبكت. بكت بعيون

نادية وخوفها على ابنتها من ذنوب لم ترتكبها. بعيون فاطمة التي لا تفهم سرّ خوف أمها عليها. بكت بعيون مريم التي اتخذت الدين شرعًا وزوجًا وحبيبًا. بكت بعيون أمها التي فقدت عينيها حزنًا على وحيدها، وبكت بعيون كل امرأة تبحث عن حضن.

5

نعناع

تقوم من نومها متثاقلة. عيناها لم تجفا بعدُ من دموع الأمس. جفناها متورمان، وجهها شاحب وشيء ما يجثم على صدرها. ها هي تستقبل يومًا آخر بلا طعم ولا رائحة. هكذا تتوالى أيامها بملل. يوم سيغادر ليسلمها ليوم جديد.

تسمع صوت الماء في الحمام، وعادل يصفر كعادته وهو يحلق ذقنه. ليس من عادته أن يكون بشوشًا، إلاّ عندما يكون بصدد قرار مهم. تغيظها مسرَّته. ما الذي يجعله سعيدًا حتى قبل أن تستيقظ السعادة من سُباتها؟ لا تسأله، ولا يخبرها. تتمتم صباح الخير بصوت غير مسموع، يفهم ما قالت ويتفهم مزاجها الصباحي. ينتظر قليلاً ثم يسألها: ما هي مشاريعك لليوم؟ تتجمد للحظات وهي تتذكر «مشروعها الأهم»، تنظر إليه. الرغوة البيضاء تغطي نصف وجهه. يبدو وكأنه «بابا نويل» بلحيته البيضاء، ينقصه الكرش فقط. ترد:

- لا شيء... يوم عادي ككلّ يوم.

- ربما أدعو ضيوفي الأجانب غدًا إلى البيت ليتناولوا الغداء معنا. لست متأكدًا بعد، لكن أرجو أن تكوني جاهزة في كل الأحوال.

ردّت متعجبة:

- منذ متى وأنت تدعو ضيوفًا غرباء إلى البيت؟ عادة تأخذهم إلى المطاعم التي تتكاثر كالأرانب في الكويت.

- هؤلاء عملاء مهمون جدًا. في حديثنا أمس، لمحوا أنهم يودون تجربة (Home cooked meal) كويتية. يعني طبخ بيت. عندك مانع؟

وبسخرية قالت:

- لا أبدا. ربما تكون فرصة جيدة لضخّ بعضًا من حياة في هذا المكان.

تجاهل تلميحها:

- هم يحبون الـ (Sea food) فاعملي حسابك على أكلة سمك، وربما «مطبق زبيدي»، كنت تجيدين عمله.

ردّت بتلقائية:

- كنت أجيد كثيرًا من الأمور يا عزيزي.

تجاهل الرد مرة أخرى، وخرج من الحمام.

من السيّىء أنها لا تفهمه، لكن الأسوأ أنها وصلت إلى درجة أنها لا تريد أن تفهمه. في السنوات الأولى من زواجهما، كانت امرأة راضية، بل سعيدة. كان لكلّ شيء معنى عندها وكلّ شيء يفرحها، أن يستحسن طبخة، أن يدخل إلى البيت مبكرًا عن موعده، أن يضحك طفلها، أن تشتري طقم صحون جديد للمنزل. سألته يومًا عن سبب تغير حالهما وحياتهما. صعقها الجواب، كنت غبية، فكنت سعيدة لكنّ المعرفة تُفسدُ عقل المرأة. فمذ خرجت خارج حدود المنزل وعملت ورأيت حركة العالم وبدأتِ تشعرين بحركته ودوران كلّ شيء على نفسه، أخذت ذات

الفكرة منه وأصبح الدورانُ من نصيبك وها أنت تدورين على ذاتك بلا مخرج فصرت تعيسة.

كانت كلماته تنفذُ لكلّ حواسها كما الطلقات. كان قلبها ينصهرُ من الألم لكنها ظلت منبهرة من تحليله وصدقه ودقته في آنٍ، ومن قسوته وفظاظة تعبيره في آنٍ آخر. راحت تنصت لداخلها « هل عادل هذا الذي لا ينتبه لشيء انتبه لي وبدأ يقرأ أفكاري؟ هل استطاع رؤيتي وأنا أدور حول نفسي وأنا أخطط لخيانته»؟

عاد الغيظ يتقدّ داخلها. كلما تذكرت كلماته، أسلوبه، طريقته بمعاملتها، آمنت بمخططها أكثر وأصرّت على عدائها له أكثر. كلّ شيء فيه يقتلها؛ بروده، صمته، بُعده، فظاظته. يا لهذا الوجع الذي لا ينفكّ يعصر روحها كلما تذكرت عدد الأيام التي عاشتها بانتظار لفتة منه، كلمة حنونة أو همسة بسيطة كانت ستكفيها لتزيل عنها غبار الروح. ماذا سيكلّفه لو حاول التغزل بها كما يفعل الغرباء؟ وماذا سيضيره لو احتضن شغفها وغافلها بقبلة؟، كم كانت تتمنى وتتمنى حتى تعب التمني منها. حتى جرّها ببلادة مشاعره لأن تعيش معه كالكنبة أو كاللابتوب الذي يستعمله. لا.. بل اللابتوب أهم منها بالتأكيد.!

قال لها يومًا بنبرة متهكمة:

- أنا لا أحب الأسلوب الشرقي في الحب.

لم تفهم. سألته:

- الأسلوب الشرقي؟

أردف بفتور:

- أنتم العرب تعيشون على الكلام. هذا كل ما تفلحون به.

وبغيظ قالت:

- نحن العرب؟ وماذا عنك؟ من أين أتيت يا خواجة؟

أخرجته ومنطقه الأعوج من رأسها غضباً، وأنهت تجهيز نفسها، وخرجت إلى الصالة لتشرب قهوتها قبل خروجها إلى «الغاليري». وجدته هناك، ما زال يقرأ في الآيباد، ويرتشف الشاي الأخضر الذي عوّد نفسه عليه رغم كرهه لطعمه. ركضت جولي نحوها حاملة بطاقة دعوة.

لم تكن البطاقة مفاجأة لها، فقد كانت تنتظر فرحة صديقتها غنيمة بابنتها منذ أشهر. ما لم تتوقعه هو أن يكون العرس في بيروت.

سألها بسخرية:

- ولماذا في بيروت؟ منذ متى أصبحت الموضة هي إقامة أفراح أولادنا وبناتنا في بلاد أخرى؟

«بلاد أخرى؟ ألست أنت أبو البلاد الأخرى»، همست في سرها ثم قالت:

- لأن ليلى التقت بعريسها نبيل في بيروت أثناء دراستها في الجامعة الأميركية هناك، وهما اللذان طلبا أن يكون عرسهما في بيروت. أنت تعرف «حسين» زوج غنيمة. لا يهمه شيء سوى سعادة عائلته، وهو مستعد ليحتفي بابنته على القمر إن تطلب الأمر.

- لا يا هانم... أنت وأنا نعلم أن «حسيناً» رجل يحب الفرح عامة،

والشرب خاصة. وبما أنه لن يستطيع توفير كميات الكحول الكافية لضيوفه في الكويت، سيأخذ ضيوفه إلى بيروت. هناك سيشرب ويفرح بابنته دون تهديدات مراهقي الدين الذين كتموا على أنفاسنا هنا.

ردّت بامتعاضٍ:

- هل يجب عليك أن تقلب كلّ مواضيعنا إلى محاضرة وعذر لشتم البلد وأهل البلد؟

- أنا جايب الكلام من عندي؟ انظري للبلد، لماذا تفرغ من سكانها عند أي عطلة، انظري للشباب حين يفرون على أول طائرة كلما أرادوا الترويح عن أنفسهم ولو ليومين. فكري بكمية الأموال التي تخرج من الكويت مع المسافرين. الإحصائيات تنشر بعد كلّ إجازة في الصحف، هل تقرئينها، أم أنك تركزين فقط على أخبار الفنانات وعمليات التجميل؟

عاودتها الغصة التي تشعر بها كلما أراد أن يلقي عليها محاضراته ومواعظه. تحشرج صوتها فابتلعت وجعها، رمت بطاقة الدعوة على طرف الطاولة، أدارت ظهرها استعدادًا للخروج. استوقفها وشعور بالذنب كاد أن يتسلّل إلى قلبه:

- لماذا لا تذهبين لوحدك... من دوني؟

كالعادة. ها هو يتخلص منها بكلّ سهولة. «روحي بروحك».

أنّبت نفسها مجدداً: «الحق علي فيما أصبحت عليه اليوم. فقد عوّدته أن أكون تحت جناحه، لا أعرف أن أتنفس بعيدًا عنه. هو من يقرر وهو من ينفذ، وما عليّ إلاّ الطاعة. كان الموضوع طبيعيًا حتى وقت قريب. لماذا أستغرب تصرفاته الآن وهو لم يتغيّر ولم يتبدل. إن كنت

سألوم أحدًا فالأحرى أن ألوم نفسي. أحيانًا نتغيّر ونلوم الآخر لعدم تغيره معنا!».

في هدأة المساء، وعلى وقع تغيير محطات التلفزيون وتقليب أوراق المجلات، جلسا بعد العشاء. كانت قد أوصت السمّاك على نوع السمك المطلوب لوليمة الغد، ورتبت أمور مطبخها. أمسكت كتابها الجديد الذي اقتنته من مكتبة المعقدين منذ أشهر، والذي كانت تعدّه كلّ يوم بأنها ستقرؤه وتؤجّل موعده. الأسودُ يليق بك. اختلف القراء حوله، البعض أشاد به وجعله رواية رائعة تنضم لنجاحات أحلام مستغانمي والبعض الآخر وضعه في مقام كتب المراهقات، كلام حلو تنقصه الأحداث والحبكة. وضعت فنجان النعناع أمامها، وراحت تقلّب في أوراق كتابها دون أن تتمكن من القراءة.

فاحت رائحة النعناع وغمرت الغرفة، شردت معها. كطفلة تتابع أسماكًا تسبح في حوض زينة. راحت تنظر في الوريقات الخُضر وهي تسبح في الماء الساخن. تدور وتدور مع دوران الملعقة، ثم تذبل. يتغيّر لونها، وشيئًا فشيئًا تستقر في قعر الفنجان. همست لنفسها: «أنا نفسي لست سوى ورقة نعناع ذابلة.»

سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، فتحت الخادمة وإذ بها ترى حسيبة زوجة العم عطية تقف في منتصف الصالة مبللة بدموعها. قفزت كالملسوعة:

- خير يا حسيبة، ماذا جرى لك؟ هل أنت بخير هل عطية بخير؟

- لا أعرف يا ست زهرة، لا أعرف إن كنت بخير أم لا أو أن الدنيا حتوقع فوق رأسي؟

نظرت حولها فلم تجد عادلاً في الصالة، خمنت أنه دخل المكتب لقضاء بعض الأعمال، سحبت المرأة من يدها وأجلستها وجلست قبالتها. نظرت إليها بتمعن، إلى عينيها الدامعتين وجهها الشاحب، جسدها المرتجف، نهديها اللذين يصعدان ويهبطان مع كلّ شهيق وزفير. حتى في حزنها جميلة.

تلفتت المرأة وكأنها تريد أن تبوح بسرٍّ خطير وقالت بصوت مرتجف:

- أنا خايفة يا هانم. خايفة. المصيبة إن حصلت، عطية حيطلقني أو سيقتلني واحدة منهم مافيش تالتة. تأخرت دورتي الشهرية، أموت لو طلعت حامل.

- حامل؟ وما المشكلة في الحمل يا بنت؟ يجب أن تفرحي.

رفعت ذراعيها وأخذت تضرب بيديها قمة رأسها.

- أنا أفرح.. نعم. أما عطية فسيقتلني. هو نبهني إن حملت تاني سيطلقني. بربك ساعديني ماذا أفعل؟

- يا حسيبة.. صلي على النبي، وتعوذي من الشيطان. هذه هبة من الله.

- ونعم بالله يا هانم. لكن ماذا أقول لعطية؟ هو دائمًا يقول: إنه يكفينا (كوم اللحم) الذين رميناهم في مصر عند أمه، ونرسل لهم ما نقبضه هنا ليعيشوا هناك، فكيف بطفل سادس؟

حملت حسيبة بثلاثة من أبنائها الخمسة في الكويت، وفي كلّ مرة عند آخر شهور الحمل تسافر إلى مصر. تنجب، وتعود بعد شهرين. هكذا بكلّ آلية. كان قلب زهرة يحترق عليها عندما كانت تشم رائحة صدرها وهو ما زال ينزُّ حليبًا حُرم منه رضيعها. لكنها الحياة.. لا بدّ أن تسرق منك شيئًا لتتفضل عليك بالفُتات.

لم تجد مخرجًا من تلك الورطة سوى أن تعدها:

اصبري يا حسيبة! لا تستبقي الأحداث، لعلها «خربطة» هرمونات. غدًا أو بعد غد آخذك إلى المختبر لأجري لك فحص دم، ثم نقرر ماذا سنفعل؟ روحي نامي، والصباح رباح.

لملمت حسيبة نفسها، وخرجت؛ رغم عدم فهمها لقضية الهرمونات تلك، وراحت تدعو لزهرة ولأولادها ولزوجها. جلست زهرة تتصفح صفحتها على الفيس بوك من كومبيوترها الشخصي، وهي تحاول أن تتناسى عينيّ حسيبة: «يهدّدها بالقتل إن حملت؟ هل يُعقل؟ ناس «بحرَّة الولد»، وناس تقتل ولدًا!»

6

بخور

وقفت زهرة، في المطبخ، مع الخادمة ببنطالها الجينز وقميصها الأبيض. المكان كله يضجُّ برائحة السمك والكزبرة والليمون. سمعت صوت عادل يناديها وهو يدخل مع ضيوفه. نزعت مريولها والربطة التي كانت تلملم بها شعرها، وخرجت ترحب بالضيوف. لا بدّ أنهم أشخاص مهمون وستتأتى من ورائهم صفقة كبيرة.

وضع يده على كتفها بتصنّع:

- أودّ أن أعرّفك بضيوفي: مستر ريتشارد ثومسون ومستر وليام أشركوفت، وهذه (My first lady) سيدتي الأولى زهرة.

شعرت بمغص يلوي أسفل بطنها من شدة قرفها من التمثيلية التي تجري أمامها. هل يا ترى هناك سيدة ثانية وثالثة؟ أم هو مجرد تعبير مجازي كسيدة البيت الأبيض الأولى؟

كان الضيف الأول رجل بريطاني بكلّ معنى الكلمة. ضعيف البنية أبيض البشرة، أزرق العينين ذا شعر كستنائي فاتح يميل إلى الحمرة. الرجل الآخر يبدو عربيًا أكثر منه أجنبيًا، لولا زرقة عينيه، بلحية سوداء وملامح حادة وبشرة مائلة للسمرة، لكن طوله الفاره ورائحته الغريبة عبثت بحساباتها.

ابتسمت واجباً:

- أهلاً سهلاً بكما. أرجوكما، تفضلا بالدخول.

التفت الطويل نحوها وبنظرة إعجاب قال:

- أخيرًا، بدأ يومنا يصبح أجمل.

ابتسمت محرجة، وعيناها تبحثان عن عيني عادل وبهما بعض من سؤال وكثير من كبرياء وقالت:

- أشكرك، هذا لطف منك. تفضلا بالجلوس. اعتبرا هذا البيت بيتكما.

جلس الضيفان بينما اعتذرت لدقائق لتتفقد الطعام في المطبخ. تفكّر وهي تتفحص السمكة في الفرن. لماذاً دائمًا أجانب؟ لماذا هوسه بكلّ ما هو غربي؟ يحيط نفسه بالأسرار. حتى ملفاته والأوراق التي يتداولها مع كلّ عملائه، يحرص على إخفائها في خزنته الخاصة التي يقفلها على ما فيها، بعكس أوراقه الأخرى الملقاة على المكتب، أو يخصّص لها ركنًا في أي مكان بالمكتب.

لم تكن تنتبه إلى هذه التفاصيل الصغيرة. كان يحب الأجانب ويتواصل معهم، بينما يتذمّر من الكويتيين والعرب بالعموم. كلما دخل البيت تحضر نفسها لحفلة التذمر والشتم واللعن التي تدخل معه. استهتار الموظفين، التأخر بالمواعيد، قمامة الشوارع، زحمة الطرقات، رعونة السائقين وعدم تحضرهم. يردد دائمًا أنه لا يستطيع تحمّل العيش هنا. هو في مرحلة مؤقتة في هذا البلد، وحالما يجد فرصة مناسبة، سيهاجر إلى أميركا. بلد أحلامه.

عادت بكأسين من عصير التفاح للضيفين. جلست تحدثهما

بينما دخل عادل ليغيّر ملابسه في غرفة النوم. وكالعادة، السؤال المفروض:

- هل هي المرة الأولى التي تزوران بها الكويت؟

التفت إليها ريشارد قائلاً:

- لا يا سيدتي. نحن نزور الكويت دائمًا لكنها المرة الأولى التي نقابل بها زوجك.

وأكمل السيد وليام:

- ولا بدّ أننا محظوظان لتعرّفنا على السيد عادل وزوجته.

شيء ما أزعجها، وشيء آخر أفرحها. لكن لا وقت للتحليل الآن. استدركت:

- أتمنى أن تكونا جائعين، فالسمك الذي حضرته لكما اليوم يحتاج إلى شهية مفتوحة. أنتم تعرفون أن الكويت مشهورة بكنوز بحرها، أعددت لكم سمكًا مشويًا ومقليًا وسمكًا بالأرز.

- وااو ..صاح ريشارد. السمك هو طبقي المفضل.

- إذًا بلا تأخير.. دقائق ويجهز كل شيء.

عاد عادل ببنطال جينز وقميص صيفي وقد تخفف من الدشداشة والغترة والعقال، الزي الذي يصرّ على ارتدائه رغم كرهه له، حتى «يمشّي» أموره كما يقول. كانت تحب أن تراه بالزي الوطني، تشعر به أكثر قربًا منها، من الأرض، من الكويت، لكنه لا يلبسه إلاّ في وقت الدوام الرسمي وفي لقاءات مع عملائه من الخليج. دعاهم إلى الطاولة:

- أكل السمك يحتاج للأيدي، فإياكم واستعمال الشوك والسكاكين هنا، زهرة ستغضب.

- لا لا.. أرجوكم خذوا راحتكم، وكلوا بالطريقة التي تريحكم. لا شروط هنا في الأكل غير أن تأكلوا بشهية وتفرغوا الأطباق من محتواها.

كان الطعام لذيذًا، اجتهدت زهرة في تحضير الأطباق، واستمتعت بما أنجزته. «المطبق» الذي كان عادل يحبه قبل أن يتوقف عن أكل الأرز، توسط المائدة، بينما تربع شيخ السمك «الزبيدي»، مقليًا، على يمينه، و«الهامور»، مشويًا على شماله. بالإضافة إلى نوعين من السلطات بجانب الدقوس والفرقاعة.

رفعت خصلات شعرها الطويل بالملقط الذي تحتفظ به في جيبها، فبان وجهها متوردًا. راحت تقوم بواجب الضيافة فتملأ الصحون وتساعد الضيوف في نزع الحسك عن السمك، وتعلمهم كيفية أكل كلّ طبق على حدا. صبّت الأرز للضيفين ثم وزعت قطع السمك فوقه ورشت فوق كلّ صحن قليلاً من الدقوس وزينتهما بالبصل المقلي (الفرقاعة):

- الآن تفضلا.. هكذا يؤكل المطبق، بعده سنبدأ بالمقلي والمشوي. وإن كنتما تحبان الفلفل الحار فهنا (المعبوج) وهو خليط من الفلفل الحار والثوم والملح، لكنه نار.. انتبها!

استمتعت بالاهتمام بهما وبمهمتها التي تفتقدها منذ أن غادر ولداها، لم تعد تجد من تسكب من روحها في طبقه. كانت تحب أن تعتني بالآخرين. أحسّت بالفراغ الذي ملأه هذان الضيفان الغريبان. راحت تمسح على بطنها بطريقة غريبة وكأنها تتحسس جنينًا غائبًا.

ذكراها بولديها، تفتقدهما وتفتقد الجلبة التي كانا يحدثانها عندما يعودان من جامعتهما أثناء فترة العطل. في فترة الطفولة، كانا شغلها الشاغل؛ لا سيّما وأنهما توأمان. عندما تضع أحدهما لينام، يفيق الآخر، وحينما ترضع الأول يجوع الثاني وهكذا دواليك. ثماني عشرة سنة قضتها من عمرها لا يشغلها سوى سارة وسالم. بعد أن كبرا، أرادت أن تنجب طفلاً ثالثًا ورابعًا لكنها تراجعت أمام نظرية عادل بأن اثنين هو الرقم «الحضاري» لعدد الأطفال في الدول المتقدمة. حياتها بعدهما أصبحت باردة مملة لا شيء فيها يستحق الاهتمام. كان عادل مشغولاً بعمله واجتماعاته وطموحاته، وقررت هي أن تعدّ الأيام. تقتات من الذاكرة أكثر مما تعيش الحياة. تتسول دفء قبلاتهما وأحضانهما، تعيش حاضرها بمؤونة ماضيهما.

راحت تؤنب نفسها: «الأمومة، هذه النعمة -النقمة، أسعد وأتعس مهنة في العالم. مهنة لا تستقيل منها الأم ما دامت على قيد الحياة. تبًا لهذا العمر، نبدأ حياتنا كضرورة قصوى، ثم حاجة، ثم شيء جميل للاحتفاظ به، ثم نصبح مسؤولية غيرنا كي ننتهي عبئًا على من حولنا».

بعد الغداء، أحرقت زهرة كرة من البخور المعمول، لتطرد رائحة السمك من البيت، أو ربما نكاية بعادل الذي كان لا يطيق رائحته. راحت تدور بالمبخر على الضيوف، فسألها ريشارد عن ماهيته. شرحت له بزهو أن هذا البخور من صنع أمها، فهي كانت تشتهر بين جاراتها ببخورها المعمول. عندما كانت طفلة كانت زهرة تتابع أمها وهي تدق البخور في الهاون وتنخله حتى يتحول إلى مسحوق ناعم، ثم تطبخه بماء الورد والمسك والعنبر وقليلاً من السكر. عندما تنتهي من عملية الطبخ، كانت أمها توكل لزهرة مهمة عجن الخليط في كرات صغيرة

ورصها في الأواني لتتركها ثلاثة أيام كي تجف. كانت حواسها تشتعل حينما تعلق رائحة البخور في كفيها طويلاً، فتلتصق بأمها طالما هي في المطبخ، لكن ما إن تغادره حتى تختفي أمها من حياتها ومن البيت كليًّا. تعتكف داخل غرفتها المقدسة المنفصلة عن غرفة أبيها لتقضي فيها ساعات وساعات. لا زالت تذكر روائح البخور المحترق وتسمع دعوات أمها الهامسة وهي تقف خلف بابها تنتظر خروجها.

- دخلت جولي بصينية الشاي والحلويات. استلمتها زهرة ووضعت كعكة التفاح بالقرفة والصينية على الطاولة في الصالون وجلست على الأرض لتصب (الاستكانات). قام وليام من مكانه على الكنبة وجلس بجانبها على الأرض. ضحكت ملء شدقيها وهي تعتذر منه:

- «لست مضطرًا أن تجلس على الأرض مثلي يا سيد وليام، أنا جلست هنا لأسهّل على نفسي صبّ الشاي.

ضحك الجميع لمنظر وليام وهو يحاول أن يطوي ساقيه الطويلتين تحته ليجلس بطريقة ملائمة.

ابتسم وليام بلطف وقال:

- لا عليك، أنا أحب أن أجلس على الأرض. ثم أردف، أرجوك ناديني «بيل».

- أنا آسفة ظننت أن اسمك وليام.

- هو وليام صحيح. لكن أصدقائي ينادوني «بيلاً» مثل بيل كلينتون. تذكرين؟

- نعم، نعم. لطالما تساءلت لماذا يسمونه بيل واسمه الحقيقي وليام؟

- يا سيدتي هذا الموضوع له قصص مختلفة لا أعرف أيّ منها الصادق، هل تودين سماع أكثرها منطقية؟

- رجاء... Please

أخذ يحكي وكأنه يقص عليها قصة للأطفال:

- يقال إنه في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في بريطانيا، اعتادوا تصغير الاسم واستبدال أول حرف منه لاستعماله كـ(nick name). وعلى هذا السياق أصبح وليام ويل، ثم غيّروا الواو بالباء، ليصبح بيل.. وذهبت مثلاً.

كان ظريفًا شدها إليه حديثه المشوق. لم تشعر بالوقت وهما يتكلمان، بينما كان عادل يفتح ملفاته، ويقلب أوراقه، ويتناقش مع ريتشارد همسا.

- ماذا عن اسمك؟ ما معناه؟

- زهرة، تعني Flower بالانكليزية.

قال مسرعاً:

- لم يخطئ من سمّاك بهذا الاسم. أنت فعلاً كالوردة.

احمرَّ وجهها خجلاً. شعور غريب طفا بها وهي الغريقة. تهجس بغرابة طريقته في التعامل معها، مع أنها لم تلتقِ به إلاّ منذ سويعات

معدودة. غريب، لكنه ممتع. تركت روحها تستأنس بغزله دون أن تلقي بالاً للرجل اللاهي عنها بعمله.

تنشَّقتْ رائحة مألوفة. فجأة، برز وجه جاسم من صينية الشاي، «هو دائمًا هكذا، يأتي في عز الفرح ليعكِّرَ عليها لحظات سعادتها» همست لروحها. كان قاسيًا مع كل أخواته، لكنه كان يميزها بالقسوة. لا تذكره يومًا كلمها، أو سأل عنها، أو افتقدها. جاسم، ذلك الأخ الأكبر الذي جعلوا منه إلهًا في بيتهم. كانت له سلطة في المنزل تفوق سلطة والدهم. عندما كانت تراه يدخل المنزل، كانت تشعر بخوف شديد، وتستعد لتلقي قسوته. ولم يخيّب ظنها مرة، فقد تفنن في اختلاق المشاكل وابتداع العقاب لها بعذر وبدونه. قسوة أخيها شكّلت مسلسلاً من العذاب؛ عانت منه طوال فترة طفولتها ومراهقتها. رفضها الحجاب الذي فُرض على نساء البيت، منحه ذريعة مناسبة لقسوة إضافية. لا تنسى عندما حُرمت الخروج من غرفتها لمدة أسبوع. كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وكانت تحب القراءة هربًا من عالمها. انقض عليها جاسم، يومًا، وهي مختبئة تحت لحافها في فراشها تقرأ رواية من روايات إحسان عبد القدوس. بالنسبة له، تلك كانت كارثة وعنوانًا للانحلال الأخلاقي والتهتك والانفلات. وليت كان عقابه فعلاً بسبب روايات احسان عبد القدوس. أسبوع كامل لم تغادر غرفتها إلاّ للحمام. أخواتها كنَّ يمررن لها الطعام والشراب، بينما قضت أمها المدة وهي تقرأ عليها القرآن، وترقيها!

سرحت بوجهه، «أين أنت يا أخي؟ تفضل، تعال لترى أختك الفاضلة تجلس مع «أجنبي» في بيتها وأمام زوجها وهو يتغزل بها. انظر في وجه أختك، انظر في وجهي. ارم عليَّ مواعظك ودروسك، عاقبني، اضربني، احرمني». انتفضت فجأة وهي تشعر بطوفان بشع يغلي في

داخلها. حملت صينية الشاي وأخاها، وقامت متعلّلة بأخذ الكؤوس إلى المطبخ.

قام الضيفان مودعين. عند الباب التفت بيل لعادل قائلاً:

- أرجوك دعني أردّ لك بعضًا من ضيافتكما، وأدعوكما إلى العشاء في أي مطعم تختارانه. نحن هنا لمدة أسبوع.

التفت عادل إليها ليستشف جوابًا فعاجلت بالرد:

- أنا أعشق الطعام الإيطالي.

بدت على وجه بيل الراحة وقال:

- إذن، السبت عشاؤنا في مطعم إيطالي من اختياركما. نحن لا نعرف المطاعم هنا. سنعتمد عليكما.

اتفقنا إذن... قالها عادل، وهو يودعهما على باب المنزل بينما انسحبت هي بخفةٍ لتلملم باقي الأطباق وشتات نفسها.

7

دهن الورد

دخلت زهرة بهو البنك. رائحة غريبة تشمها لأول مرة. «هل يمكن أن يكون للتدين المزيف رائحة؟» تكره أن يتسرّب إلى عقلها بعضٌ من مفاهيم زوجها، تنتبه لكنها لا تعترف. «أصبح الإسلام سلعة يتاجرون بها» تستذكر كلمات زوجها؛ «بنك إسلامي، صالون إسلامي، عرس إسلامي، طلاء أظافر إسلامي حتى أن هناك محلاً لبيع البيرة الإسلامية والعصير الإسلامي». التفتت حولها. «ما الفرق بين بنك إسلامي وبنك غير إسلامي. كلهم يجرون المعاملات نفسها وبالطرق نفسها، الفرق فقط في التسمية. لكن المصيبة أنها (تمشي) على الناس ويصدقونها».

لم يكن ممكنًا أن تقف مكتوفة الأيدي أمام دموع ابنة اختها التي لجأت اليها، ولم يكن ممكنًا أن تستسلم لقسوة أختها، فكان لا بدّ أن تفعل شيئًا يعيدُها لدائرة الأمل. لا تدري أي هوس سيطر عليها لتتجرأ على خطوة كهذه، لكنها أقدمت.

طلبت مقابلة مدير الفرع. قادها السكرتير إلى مكتب زوج أختها. دخلت عليه فوقف مرحبًا دون أن يمد يده.

- السلام عليكم.

ردّ بلطف:

- وعليك السلام يا أم سالم، أهلاً ومرحبًا بك.

ثم أضاف بمزاحٍ:

- أول مرة أراك بعباءة!

ردّت بهدوءٍ:

أنا ألبس العباءة للضرورة، ورغم أني لست متشددة دينيًا أو (سبور) كما تقولون، إلاّ أنني أعرف الأصول ولست بلا ذوق. من غير المعقول أن أدخل عليك في بنك إسلامي، وأنت مدير فرعه، وأنا سافرة، منعًا لإحراجك فقط وليس تطبيقًا لقوانين تودّون فرضها.

ضحك وقال:

لا يا سيدتِي، لن نفرض القوانين، يقول تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

ما علينا يا أم سالم، قولي لي، كيف لي أن أساعدك؟ تحتاجين قرضا؟ سلفة؟ آمري!

شرحت له مسألة فاطمة ومدرستها وقد كان سمع زوجته تحكي بها مع (آنستها) على الهاتف، لكنه لم يعلم بأنها اتخذت قرارًا. كانت تعرفُ عنه اعتداله بدينه وانفتاحه على العقل الآخر لكنها لا تدري، فلربما تأثيرات أختها طالته، ولربما تبدّل هو الآخر في زمنٍ يتبدّل فيه كلّ شيء

أفرحها زوج أختها حين أبدى امتعاضه من الموضوع ، كان ضدّ تغيير محيط ابنته في آخر سنوات دراستها، بل كان ضدّ المدارس

الدينية التي عادة ما تكون متشددة ومتطرفة بشكلٍ غير مقبول كما قال. وعدها خيراً، وأنه سيحاول أن يثني زوجته عن قرارها، مع علمه بصعوبة المهمة لكونها عنيدة وشرسة. عندها، قالت له زهرة:

- يا سيدي. في النهاية إن لم تقتنع، يمكنك أن تستعمل سلاحها نفسه. أي الشرع، فأنت وليّ أمر العائلة وبيدك وحدك القرار.

ضحك:

- لم أعلم أنك بهذا الدهاء يا أم سالم. أراك مختبئة تحت ملامحك البريئة.

ابتسمت بخبث، شكرته وخرجت مسرعة هربًا من رائحة الزيف التي كانت تخيّم على المكان.

كانت تشعر بالراحة. لأول مرة تتخذ قرارًا جريئًا وتنفذه. احترمها زوج أختها، واحترم طلبها. «إنسان راقٍ، لا أدري لماذا لا تصبح زوجته مثله؟» تساءلت. لم تخلع عباءتها. انطلقت الى السالمية. ركنت سيارتها أمام العمارة ذاتها. كان الوقت عصرًا ومدخل العمارة يزدحم بالداخلين والخارجين، انتظرت في سيارتها لمدة نصف ساعة، وعندما رأت بعض السيدات المتشحات بالسواد يدخلن العمارة، حملت كتيباتها ونزلت وتبعتهن. ابتلعت العمارة الصغيرة الجميع.

مع دخول المساء .. كان الهدوء يخيّمُ على كلّ شيء إلاّ صوت عبد الله الرويشد يأتي صادحًا من الراديو. كانت في غرفة نومها، تنهي اللمسات الأخيرة على جمالها. تتفحصُ وضع مكياجها آخر مرة. تعيدُ تسريح شعرها الذي صففته في الصالون الجديد حيث افتتح بجانب

نادي الكورنيش. فتاة انجليزية هي التي اعتنت بها، وبالرغم من أنها حاولت ما استطاعت أن تفهم طلباتها وتنفذها، لكنها لم تنجح. لا يعجبها تصفيف الأجانب، «لا يفهمون شَعرنا»، هكذا تردّد دائمًا. أعادت تمشيطه بمساعدة «السشوار»، ثم رفعت خصلاته الأمامية وتركت الباقي ينسدل على ظهرها كموج البحر إذ يرخي سدوله.

كانت قد قررت ارتداء فستانها الدانتيل الأسود، ماركة الـ (دولجي أند جابانا)، من أقرب فساتينها لها إذ يظهر تفاصيل قوامها ويحدّد مفاتنها. وضعت أقراطها وعقدها اللؤلؤ الذي اشتراها لها عادل بمناسبة عيد زواجهما الخامس، قبل أن ينسى المناسبات والأعياد. لبست حذاءها الأحمر، وراحت تدندن مع الرويشد «لمني بشوق واحضني». بحركة عفوية، حضنت نفسها. يقال إن حركة احتضان النفس تفتح أقوى «شاكرات» الطاقة النفسية. هكذا علموها في درس اليوغا الذي لجأت إليه منذ سنوات، في محاولة لاستخراج ذاتها من مستنقع الحزن؛ حيث كادت أن تغرق.

للآن تتذكرُ جيدًا ردّة فعلها عندما قال لها معلم اليوغا، الهندي إن عليها التصالح مع نفسها وأن تعتذر منها. حاولت كثيرًا، لكن نفسها لم تكن متصالحة معها، فرفضت الاعتذار. فرض عليها أن تحب نفسها، إذ كانت التعليمات تستوجب وضع يدها علي بطنها، فيما اليد الأخرى على قلبها ثم تغمض عينيها. فعلت كل ما أمرَت به ثم راحت تتنفس بعمق، وتتخيّل ذاك الطفل الصغير الذي قالوا لها إنه يسكن داخلها، وعليها أن تعطيه من حبّها وحنانها. بحثت عنه، لم تجده. بحثت أكثر لم تجد سوى جنين مشوَّهٍ مات قبل أن يولد.

لكنها منذ أن طوت الأربعين؛ وهي تنظر إلى نفسها بعين جديدة. ترى نفسها أجمل مما كانت في صِباها. بطريقة غريبة، باتت نفسها

تتصالح معها لتتصالح هي الأخرى مع ذاتها، ورغم كلّ خرابها الشامخ في روحها والذي يمد رأسه بين الفينة والأخرى إلاّ أنها أصبحت تحنّ لنفسها كثيرًا وتحبها أكثر من أي زمن مضى. تحب شكلها وجسدها وشَعرها. شَعرها الأسود الطويل، الذي اشتاقت له طيلة خمس عشرة سنة.

كم كان جميلاً لو رآها عادل كما ترى نفسها الآن. كم كانت ستفرح بكلمة مهما كانت بسيطة يعبّر عن إعجابه بها، بفستانها، بمكياجها، بحذائها، بأي شيء. ستقبل حتى لو فرض عليها أن تغيّر فستانها لأنه قصير أو ضيق أو لأنه لا يعجبه وحسب!

رشَّت بعضًا من العطر على رسغها وخلف أذنيها، وخرجت من الغرفة. كان عادل جالسا في الصالة ينتظرها. تعمدت الإبطاء في مشيتها كي تتسنّى له رؤيتها. لم يرفع عينيه عن شاشة الآيباد.

- جاهزة؟ رماها دون أن يرمش بعينيه.

- جاهزة.

عند باب السيارة، لمحت حسيبة تنظر إليها. برغم بعدها النسبي عنها استطاعت أن ترى الرعب في عينيها. لوَّحت لها مبتسمة وكأنها تصبّرها على ابتلائها، فردَّت عليها المسكينة بتلويحة وقد فهمت ما قصدته سيدتها.

كان ريتشارد وبيل قد وصلا قبلهما إلى المطعم، وقد حدّدا مكان جلوس كلّ منهم. وجدت بيل بجانبها، بينما كان ريتشارد من الجانب الآخر وعادل جلس قبالتها.

توسدت الكرسي الوثير في مطعم (الريكاردو) الفخم وأمسكت

قائمة الطعام التي كانت على الطاولة قائلة: فلنطلب. أنا لم آكل شيئًا طوال النهار كي أستطيع أكل الـ«باستا» براحتي دون الشعور بالذنب.

ابتسم بيل بإعجابٍ لم يخفه:

من هم بقوامك ليس عليهم أن يحذروا أو يتبعوا حميات يا سيدة زهرة.

استغرابها لجرأته لم يمنع الغبطة التي شعرت بها، إطراؤه لقوامها الذي لا يعجب زوجها، وتحت مسامعه، أسعدها. ضحكت قائلة بغنج:

- نادني زهرة أرجوك. أنا لا أحب الألقاب.

مال نحوها بتحفظ، فرجعت قليلاً في كرسيها بعفوية، وقبل أن تبدي دهشتها، سألها:

- ما العطر الذي تضعينه؟

- هذا عطر عربي ليس له اسم. هو عبارة عن دهن الورد. أي مركَّز الورد.

ابتسم:

- اختيار موفق. يليق بصاحبته.

رفعت قائمة الطعام لتخفي وجهها وحرجها، وبعضًا من دهشة وسعادة بإطراء هذا الرجل الأنيق. تذكرت ضيق عادل من عطرها المفضل. بالنسبة له هو (Too Arabic) مفرط في عربيَّته. كانت قد امتنعت عن استعماله في بداية زواجها، لكنها عادت له مؤخرًا ضمن الأمور التي عادت إليها، وأخرى كانت قد استحدثتها.

كان بيل وسيمًا وأنيقًا. ارتدى بنطالاً من الجينز وقميصا أبيضَ وفوقهما سترة كحلية بأزرار مذهَّبة. هالة من غرابة مثيرة كانت تحيط به، ورغم خبرتها، لم تستطع تحديد كنه رائحته. كانت جديدة، لم تختبرها من قبل. سألته:

- لا بدّ أنك بريطاني بالتجنُّس، ككثيرٍ من البريطانيين هذه الأيام. فمن يذهب لبريطانيا الآن، لا يستطيعُ أن يعرف إن كان في لندن أو كراتشي أو شنغهاي أو الرياض. ولون بشرتك وملامحك لا تمت للبريطانيين بصلة.

ضحك، وقال:

- للأسف لا. أنا، يا سيدتي، أميركي أعيش وأعمل في لندن منذ سنوات، لكن أمي من الأرجنتين، وقد أورثتني لون بشرتها وملامحها.

- آه... قالتها فرحة. إذا أنت من بلاد التانغو.

- تحبين رقص التانغو؟

- أعشقه... أقصد أعشق الفرجة عليه. لا أجيده. لكنني أستمتع عندما أراه. حضرت حفلاً رائعًا لفرقة أرجنتينية في بيروت في الصيف الماضي.

- لكن تلك الفرق تكون عادة تجارية، لا يرقصون التانغو بحسب القواعد والأصول. هم يرقصونه لإدخال البهجة إلى نفوس السياح فقط. إن كنت تودين رؤية التانغو الحقيقي، لا بدّ أن تزوري الأرجنتين... هناك، حتى المولود يرقص فور خروجه من بطن أمه.

وصلت أطباق المعكرونة المختلفة، للثلاثة، ما عدا عادل الذي نظرت في صحنه فوجدت سمكة مشوية. همست في سرّها «باهتة اللون

والشكل، ومن المؤكد الطعم. نعم إنها تشبهه». برفقة الباستا، التي قال بيل إنه يجيد طبخ أنواع كثيرة منها كونه طباخًا ماهرًا، أخذهما الحديث إلى إيطاليا، بمدنها وقراها وأكلها ولغتها. كان بيل كثير الأسفار وقد زار دولاً عدة، أولاً كطالب، وبعد ذلك كجزء من عمله كمدير تنفيذي لشؤون الشرق الأوسط في بنك بريطاني. كان مثقفًا وله اهتمامات عديدة في مختلف المجالات. حكت له عن عشقها للإيطاليين ولبلدهم، فطلب عنوانها الالكتروني ليبعث لها صورًا عن قرية صغيرة زارها في إيطاليا على ساحل الأمالفي على الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سونتوريني الإيطالية. تعوّدت أن تحتفظ بعنوانها الالكتروني مسجلاً في تلفونها المحمول. سحبت هاتفها من حقيبتها الصغيرة، فوقع منها عدة بطاقات شخصية لها باسم «الغاليري». قلبها بيل ليقرأ بالإنجليزية ثم نظر لها مندهشاً:

- تعملين في غاليري!

- لا. أنا أملكه. ليس شيئًا مبهرًا كما في لندن ونيويورك. هو صغير، بسيط، لكني أحبه.

- جميل.. جميل. ليس هناك ما هو أفضل من الفن كي يهرب إليه الإنسان من مشاكله. ألم يقل بيكاسو الفن يمسح عن الروح غبار الأعباء اليومية؟

Exactly! .. تمامًا

صرخت، وكأنها فهمت للتو سبب تعلقها بلوحاتها.

طلبت رقمه لتبعث له ببريدها الإلكتروني الخاص كرسالة نصيّة. بينما دس بيل بطاقة من بطاقاتها في جيبه خفية. عندما تساءل عادل عن سبب ظهور الهواتف المحمولة، أرادت أن تصدق أنه

شعر ببعض الغيرة، لكن فرحتها لم تدم طويلا. فعندما علل بيل أنه أراد بريدها الالكتروني ليرسل لها صور وعناوين أماكن في ساحل الامالفي الايطالي، التعليق الوحيد الذي خطر على بال عادل كان:

- نعم، هذا الساحل الجميل، أغنى أغنياء العالم يملكون بيوتًا هناك.

«تبًا لك ولأحاسيسك ومشاعرك الجليدية. هذا كلّ ما يهمك.» تمتمت في سرّها.

انتهت السهرة ووجه بيل وحديثه لا يفارقانها. عذوبة كلماته، اهتمامه الفائق بها وبكلّ تفاصيلها، عيناه اللتان لم تتحولا عنها. إضافة إلى أن الإحساس الرائع الذي غمرها وهو بجانبها، لازمها حتى آخر الليل.

عندما دخل عادل بسيارته إلى مرآب العمارة، رأت شبح عطية يركض نحوهما:

- مساء الخير يا باش مهندس، مساء الخير يا ست هانم.

تعبت وهي تشرح للعم عطية أن عادلاً ليس بمهندس وأنه مدير شركة استثمارية، وكان دائمًا يرد بلكنته الصعيدية المحببة:

- «ماتفرقش يا هانم، هو باش مهندس ولا باش بنك، هو باشا وبس».

سألته عن حسيبة، فقال: إنها نائمة معلّلاً نومها بالكسل المفاجئ الذي بدأ يداهمها. فعاتبته قائلة:

- ارحمها يا عم عطية، وانظر كم شقة تنظف في اليوم، بينما تجلس أنت عند باب العمارة تدخن الشيشة طوال النهار».

ضحك عطية فبانت أسنانه الصفراء وودعهما قائلاً:

- « تصبحون على خير»

كانت منتشية عندما دخلا البيت، لأسباب لا دخل له بها، لكنها قررت أن تحاول. بدلت ملابسها، وارتدت قميص نوم أسود شفاف وراحت تفتعل قضاء أمور في الغرفة جيئةً وذهابًا. لمحته يرفع عينيه فاستبشرت حبًّا، فإذ به يفتح شاشة الكومبيوتر قائلاً:

- عندي إيميل مهم يجب أن أبعثه قبل بداية الأسبوع في لندن.

تأكدت أنه لم يرها ولن. دخلت الحمام، نظفت أسنانها وخرجت لتجده غارقًا في شخيره.

نظرت إلى نصف السرير الفائض عن حاجتها، اندست به، وابتعدت عنه بقدر ما تستطيع. حاولت توقيت أنفاسها مع شخيره لتدخل في إغفاءة تنسيها حقدها. لم يجرحها إهماله بقدر ما أثار نقمتها عليه أكثر وأكثر. حاولت أن تتذكر آخر مرة اقترب منها، داعبها، قبّلها. لم تفلح. راحت تهجس: «ماذا لو كانت المرأة هي التي تتمنّع عن الرجل؟ من المؤكد أنه سيجد مئة وسيلة لإنهاء أزمته، أولها الخيانة وآخرها الاغتصاب الزوجي!»

امتلأ قلبها بالأنين، انكمشت على وجعها، لملمت جسدها وهي تستشعر بألم شديد في بطنها، عانقت نفسها. ضغطت بيد على موقع الألم، حبست دمعة لم تشأ لها أن تفضحها وغفت.

8

زعفران

كانت تخرج من مصعد العمارة، بعد يوم عمل قصير في المعرض. حين سمعت صوت جلبة أطفال، وإذ بجارهم خليفة يقف بالباب ومعه ولداه. كان يتصبّب عرقًا وهو يتمتم بكلمات لم تفهمها. أصابها الرعب:

- خير يا بو عمر، ما الأمر؟

حاول أن يرتب أفكاره:

- خير خير يا أم سالم. هل أستطيع أن أطلب منك خدمة بحكم الجيرة؟

- آمر يا سيد خليفة. ماذا تريد؟

- هل أستطيع أن أترك عمر وحسنًا عندك لمدة ساعة؟ هما من نصيبي اليوم، لكن جدَّ أمر هام، ولا أستطيع أن آخذهما معي.

ابتسمت، محاولة أن تهدئ من توتره:

- على الرحب والسعة يا أستاذ خليفة أنت وأولادك.

عادة، لا تصادفه إلاّ صباحًا، في موعد ذهابه إلى الجريدة،

حيث تعبق منه رائحة الصابون، أو مساء عندما تكون الرائحة مختلفة جدًّا. يبدو للرائي إنسانًا غريبًا رغم أنه كاتب مشهور وله عمود يومي في إحدى الصحف ويعتبر الأكثر قراءةً. هو باختصار خلطةٌ عجيبة؛ مقروء، مكروه، مستفز لكنه محبوب أيضًا. قلمه حاد، ساخر وجارح، يستفز الجميع، ليبراليين كانوا أم إسلاميين، حكوميّين أم معارضة، لا فرق، فالكل تحت سلاطة قلمه سواء. أما كرهه الأعظم وهجومه الأشد فهو من نصيب النساء، حيث عمد الى تخصيص يوم واحد من هذا العمود لعداوة المرأة. ربما كان كرهه لهن بسبب طلاقه العنيف الذي كتب عنه في الجريدة منذ سنوات.

لا أحد ينسى ما فعله خليفة حين نشر قبل أشهر مقالاً يهجو به النساء، حتى أصبح حديث الكويت لأسابيع. كان مقالاً ساخرًا رغم قسوته، إذ راح يسوق الأمثلة عن سيطرة النساء على أزواجهن، فنّدها مثلاً مثلاً، بدءًا بالجنس وصولاً إلى المال، مستنتجًا في النهاية أن المرأة عمومًا هي التي تملك السيطرة في المنظومة الزوجية والرجل ما هو إلاّ (رِجل) كرسي في البيت. اضطرت الصحيفة لتخصيص صفحة كاملة بعد أيام لردود القراء، التي كانت في معظمها غاضبة.

ترك أيدي الصغيرين في يديها، واستدار مغادرًا وهو يقول:

-شكرًا شكراً. لن أنسى لك هذا المعروف يا أم سالم. سأعود خلال ساعة.

فتحت زهرة باب الشقة، ودعت الولدين إلى الدخول بينما كان أبوهما يهبط الدرج هرولةً، كأنه نسي أن هناك مصعدًا في العمارة. بدورها تجاهلت كلّ الأفكار التي قد تطرق رأسها، وتركت لسعادتها أن تقفز لعودة الطفولة الى بيتها.

عمر في السادسة وحسن في الرابعة من عمره. وضعت حقيبتها على طاولة الطعام، وجلست معهما وأدارت التلفزيون، علّها تجد برنامجًا مسليًا للأطفال. لا اشتراك في المحطات الفضائية العربية، فكلّ ما يتابعه عادل كان القنوات الأجنبية، وكلّ ما تشاهده هي الإعلانات في الوقت المتاح بين برامجه. قدمت لهما علبتي عصير فشرباها، ثم قامت تبحث عن أي حلوى أو شوكولا فلم تجد. اقترحت عليهما أن يقوموا بخبز كعكة سويًا، فابتهجا فرحًا. دخلوا المطبخ، مكانها المفضل وغرفة الإنعاش التي كانت تسترد أنفاسها فيها، كلما ضاق صدرها واختنقت روحها. كانت علاقتها بالمطبخ قديمة منذ كانت طفلة. كانت الوحيدة التي تدخل مع أمها إلى المطبخ، وتساعدها في تحضير الطعام. تستمتع بالمهام البسيطة التي توكلها لها أمها؛ كفرم البقدونس والكزبرة وتنقية الأرز. لاحقًا، أخذت تطبخ معها، ثم عوضًا عنها بعد أن توقفت أمها عن الطبخ... وعن العيش.

سحرتها البهارات. كانت أمها تتفنَّن في إعداد خلطات البهارات. تشتري كل بهار طازج على حدة. تغسله، تجفّفه في صوانٍ على السطح ثم تفرمه وتطحنه وتعمل خلطة لكل طبخة. خلطة المجبوس، خلطة البرياني، خلطة مرق السمك كان جميع الأقارب يطلبون خلطة بهارات أم جاسم.

كان كلّ شيء يسحرها وهي الطفلة الصغيرة الملأى بالأسئلة والاكتشافات، حين كانت تغوص في خزانة أمها وتقضي الساعات، تفتح القوارير تشمها وتسألها عن أسمائها واحدًا واحداً. كانت أمها تبتهجُ لأسئلتها وهي ترى واحدة من بناتها تشاركها شغفها وتعير لها اهتمامًا بالإنصات الكامل لما تقول، وهي تتفنن بفكّ طلاسم الرائحة التي لا يعرفُ أسرارها غيرها. تقوم الأم بدور الحكواتي كي تدل ابنتها

على مكامن العطر، لتحكي لها قصة كلّ بهار وعشبته وتعلمها فوائده وخصائصه حتى تصل لكيفية ومناسبة استعماله. عندما تزوجت، أبدت عناية خاصة بمطبخ منزلها، وجعلت للبهارات والتوابل خزانة خاصة. كانت تستمتع برؤية ألوانها المختلفة على الرفوف وتحرص على أن تكون دائمًا طازجة لتضمن جودتها. بهارها المفضل هو القرفة، تضيفه على معظم وجباتها وحتى على قهوتها وشايها. كانت قد قرأت أن القرفة مفيدة للجسم والدماغ معًا بالإضافة إلى كونها مطهرة تقلّل من انتفاخات الأمعاء، فهي تحسن الوظائف المعرفية للدماغ. بالنسبة لزهرة كانت رائحتها تدوخها، كانت تتعمد أن تخبز كعكًا بالقرفة للأولاد في المساء حتى تنتشر رائحتها في البيت. الآنَ، كلما كلمت ولديها قالا: (ماما... نشتاق إلى رائحة القرفة). أصبحت القرفة رائحة الوطن.

أرادت أن تخبز (قرص عقيلي) للأولاد، لكنها تذكرت أنها لا تحتفظ بالزعفران في مطبخها. بالرغم من أن الزعفران كان له مكانة خاصة عندها، إلاّ أن عادل كان يكرهه، بسبب كرهه لأي شيء شرقي. بكلّ ديكتاتورية، منعها من استعماله. كانت تحبه في الشاي وفي المجبوس والمحّمر وغيره من الأطباق الكويتية التي كانت تتناولها في منزل أهلها. كلما سافرت إلى إسبانيا، كانت تشتري منه علبًا صغيرة وتهديها لأمها وأخواتها كـ (صوغة). لم تعرف سبب ارتفاع سعره، إلى أن سألت البائع في ماربيا يومًا، لتعرف أن جمع كيلو غرام واحد من الزعفران الجاف، يستلزم مئة وثلاثين ألف وردة. سخر البائع يومها من بضاعته: «غريب هذا الإنسان يجمع عشرات الآلاف من الورود ليستخلص منها لونًا أو طعمًا». لكنها لم تحب الزعفران بسبب طعمه ولا لونه ولا كونه مهضمًا، بل لأنه كما قيل لها، له تأثيرًا مفرحًا ويمنح

انسجامًا نفسيًا. كانت تطمع ببعض الفرح أيًّا كان مصدره، لكن حتى «فرح الزعفران» حُرمت منه.

صنعت مع الولدين كعكة الكاكاو حسب وصفة أمها. غرقوا في الطحين والبيض وبودرة الكاكاو. استعادت ذكرياتها مع سارة وسالم عندما كانا يقضيان ساعات طويلة في المطبخ برفقتها. وجدت نفسها تردد ما كانت تقوله لهما. كلمات استرجعتها من ماض بعيد: (لا تقترب من الفرن)، (إياك والكهرباء)، (احذر الخلاط). وضعت الكعكة في الفرن، وفاحت رائحة الكيك الطازج في الأرجاء، بينما الولدان يلحسان الملاعق والخفاقة مستمتعين بمذاق الخليط. أخذت ترقبهم فسرحت للحظات وهي تمسح على بطنها بعفوية: «منذ زمن لم أدخل المطبخ مع أطفال. كنت سعيدة بهم وكنت أحب وكنت أطبخ. غريب أن كلّ ما أحبه صار يسبقه فعل كان».

دق جرس الباب، نظرت إلى ساعتها فإذا بها السادسة مساء. فتحت. كان خليفة يقف معتذرًا:

-أنا آسف. لقد تأخرت عليك وعلى الأولاد، وأنت لا ذنب لك بمشاكلهم ومشاكلي، إنما هي تلك الخبلة التي تُسمي نفسها أمًّا.

قاطعته واضعة إصبعها على فمها:

-ليس أمام الأولاد. هي أمهم أولاً وأخيرًا. صدقني أني استمتعت بكلّ دقيقة قضيتها معهما وأرجوك لا تتوانى في تركهما عندي كلما قضت الحاجة.

قبّلت الولدين، ووعدتهما بإرسال الكيكة لهم حالما تنضج. أقفلت الباب وأسرعت إلى كومبيوترها. حضور الأولاد في البيت أنعش حنينها إلى أولادها. فتحت «الفيسبوك» لترى إن كان أحدهما على الخطّ، فلم

تجد أيًّا منهما. أرسلت رسالة هاتفية لسارة أن تفتح الكومبيوتر.

في صندوق الرسائل الخاصة على الفيسبوك ظهرت حروفها:

- بونجور ماما

- أي بونجور يا بعد عمري واحنا صرنا المساء.

- يا أمي نحن «الفرنسيون» نقول بونجور طوال اليوم.

ضحكت بصوت عالٍ، وأردفت ضحكتها بحروف الكترونية:

- ههههه يا «النزقة»، صرت فرنسية؟ أبوك أميركي، وأنتم صرتوا فرنسيين، لم يبق سواي، أنا الوحيدة دمها عربي في هذه العائلة. اشتقت لك يا سارونة.

- وأنا بعد. شلونكم وشلون بابا وشلون الكويت، ولهت على الكويت.

- واحنا والكويت ولهنا عليكم. فتحي الكاميرا. أين أخوك؟

- يمه. كم مرة أقول لك إن الكاميرا معطلة. ثم أنت تعرفين سالم. فهو دائمًا إما مشغول أو بالقطار مع أصدقائه في طريقه إلى لندن لقضاء النهار.

- آه... من هالولد. المهم كيف حالك أنت وكيف كان آخر اختبار؟

Tres bien.. الحمد لله..كان ممتاز. ماذا قال أبي عن الرحلة الجامعية؟

- أنت تعرفين أباك يا سارة، المشكلة ليست معه، بل معي أنا. هل سيذهب أخوك معك؟

- وبعدين معك يا أمي؟ لا.. سالم لا يريد السفر في هذه الرحلة، عنده رحلة إلى بريطانيا لنادي ليفربول لكرة القدم. ثم، ألن تقتنعي أني كبرت وأني أستطيع الاعتماد على نفسي؟ ولا أحتاج لـ «شابرون».

كتبتها بالفرنسية، فتذكرتها وهي تتكلم بها، كم تحبها وهي تتكلم الفرنسية، تليق بها هذه اللغة، ناعمة مثلها.

- سارة.. حبيبتي عرس ليلى سيكون في نهاية أغسطس/آب، هل ستحضرينه؟

- -الله.. حددوا يوم العرس. يا للحظ السيئ. سنكون قد بدأنا دوامنا. هذه سنتي النهائية ولن أستطيع التغيب.

وقبل أن تستطيع الرد على ابنتها، ظهر لها ضوء أحمر في قائمة الأصدقاء، كناية عن طلب صداقة جديد على صفحتها. وكالعادة ضغطت على زر الرفض وعادت لسارة.

- اسمعي حبيبتي. أنا أخاف عليك من التجوال في أوروبا لوحدك.

- يا أمي أنا لست لوحدي، نصف الجامعة ستكون معي، ومعنا مدرسون ومشرفون. هي رحلة جامعية، وأحصل منها على علامات لكورس تاريخ أوروبا. يعني نص وناسة ونص فائدة.

دقائق وعاد الضوء ليظهر من جديد. نظرت للاسم فلم تعرفه. ضغطت الإلغاء مرة ثانية وعادت لابنتها. وبسرعة البرق ظهر مرة ثالثة. دققت في الاسم جيدًا (بيل تانغو). ضحكت من الأعماق لطرافته وسرعة بديهيته. ضغطت زر القبول، وما هي إلاّ ثوان حتى فتحت عندها نافذة جديدة يزيّنها وجه بيل الوسيم.

Good evening Flower مساء الخير يا وردة. كيف حالك؟

-أنا بخير أتحدث مع ابنتي سارة في فرنسا.

لم تدرك لماذا قالت له ذلك؟، أو هي ربما تدرك أن الأمومة هي أول خطوط الدفاع وآخرها.

- أخبرتني أن أولادك يدرسون في فرنسا، عندما تنتهين، اطرقي نافذتي وسأكون عندك. أقصد في شاشتك في الحال.

عادت إلى نافذة سارة فوجدتها قد اعتذرت. لديها دراسة تحضير للامتحانات، ووعدتها بإكمال الحديث غدًا وودعتها بقبلة كبيرة احتلت الشاشة.

كان في نيتها التريث قليلاً قبل العودة لنافذة بيل، لكن شيئًا غريبًا سحب أصابعها وضغطها على لوحة المفاتيح.

بصراحة بيل، كيف وجدتني؟

- صدفة. كنت أبحث عن أجمل زهرة في العالم على غوغل، ونتيجة البحث كنت أنت.

ندت عنها ضحكة دون إنذار. كممت فمها بيدها خوفًا من أمر لا تعرفه.

أكمل:

- أنت يا ذكية، أعطيتني عنوان الهوت ميل الذي يخصك. وكل ما احتجت بعده أن أبحث عنك في «الفيسبوك» وأبعث لك دعوة.

- كيف لي أن أحزر أن بيل تانغو هو أنت؟ أنت تعرف أن هذه الأمور هوس المراهقين.

- اعتبري نفسك مراهقة لبعض الوقت وحدثيني.

بالرغم من استغرابها لحديثه، وبالرغم من دهشتها لأسلوبه الجريء، تركته يلقي على مسامعها كلامًا كانت في أشدّ الحاجة إلى سماعه. نسيت جذور شعرها البيضاء، نسيت التجاعيد التي بدأت تحدّد عينيها، نسيت زوجها وأولادها، وتناست أخاها. عادت ابنة العشرين تستمتع بإعجاب لغزل غريب!

9

شاي أخضر

لم يطل انتظارهما في مختبر السالمية الصحي. بعد سحب عينة الدم من ذراع حسيبة، نزلتا وشربتا كوبين من العصير من مطعم مروش أسفل العمارة. بعد ربع ساعة، صعدتا ثانية. رائحة المحاليل الطبية تزعج زهرة وتزكم أنفها. وقفت ممرضة نحيلة شابة بثوبها الأبيض الناصع وراء مكتب الاستقبال وبيدها ورقة دونت عليها بضعة سطور، وكلمة بخط أحمر كبير (Positive). ما كانت حسيبة لتفهم، لو لم تتسرع الممرضة وتقول بنبرة مبشرة «مبروك». انتفضت المسكينة رعبًا، وأخذت تنتحب وهي تصفع نفسها بكفيها. تهاوت بين يدي زهرة كمن فقد عزيزًا. صُعقت زهرة لحال حسيبة المرأة المرتجفة بين يديها، فضمتها إلى صدرها وهي عاجزة عن فهم ردّة فعلها. سحبتها من يدها سريعًا وخرجتا من المخبر وسط ذهول المراجعين.

أدخلت حسيبة السيارة وجلست إلى جانبها، وهي ترجوها أن تهدأ وأن تحاول إقناع زوجها بنعمة الطفل الجديد. كل كلامها كان يذهب أدراج الرياح، وحسيبة تبكي وتولول كلما سمعت كلمة طفل. سألتها عما تنوي فعله، لكنها استمرت ترتجف الى أن سمعتها تقول:

- أتخلص منه.

فصرخت زهرة بذعرٍ:

- تتخلصين من الطفل، هل أنت مجنونة؟

- أعمل إيه؟ يا أقتله يا يقتلني. اختاري أنت يا ستي!

لم تفهم زهرة من سيقتل حسيبة، الطفل أم الزوج؟ استغربت أن يكون موضوع الحمل بهذا الثقل على عطية. لثوانٍ، شكّكت بصدق ادعائها.

- حسيبة، اسمعي، لا تخبري أحدًا بحملك الآن، ولا حتى عطية. وأنا سأتصرف.

- سايقة عليك النبي يا ست زهرة، حتعملي ايه؟

- لا أدري يا حسيبة لا أدري لكننا سنرى .. دعيني أفكر. أما الآن فنعود إلى البيت، لكن عليك أن تتوقفي عن البكاء حتى لا يشك زوجك بك. ها؟ لا تقلقي فما زلت في أول أو ثاني شهر على الأكثر، ولن ينتبه إن تماسكت. امسحي دموعك وجففي عينيك. وسنجد حلاً.

استكانت المسكينة لا لسبب إلاّ لأنها لا تملك حلاً آخر. بينما راحت زهرة تفكر بعذابات المرأة أينما كانت، وعلى كلّ المستويات.

أعادت حسيبة إلى البيت ثم اتجهت إلى الغاليري. استقبلها طارق، الفنان الناشئ الذي بدأ يداوم عندها منذ بداية العام. كانت زهرة تحبه كابنها سالم وإن كان يكبره بعدة أعوام. لطيف، مهذب، وطموح. كانت تشجعه دائمًا وتأخذ بيده وتشيد بنشاطه وموهبته أمام كبار الفنانين، لكنها كانت تخاف عليه من نفسه. كان مبهورًا بالفن العالمي، ويعمل بجدٍّ كي يجمع ما يكفيه ليهاجر ويعيش في إيطاليا، «أم الفن» كما يسميها. تخاف عليه، وتقلق أن يسحبه طموحه وينسيه

آدميته. تخاف أن يصبح عادلاً آخر. تسأله عن أموره العاطفية، فيحكي لها عن مغامراته. تشجّعه على الارتباط على الأقل عاطفيًا ببنت البلد، آملة في قرارة نفسها أن يمنعه قلبه من الهجرة.

توجه لها بوجهه البشوش:

- صباح الخير. وصلت شحنة اللوحات الجديدة باكرًا. وحميد كان هنا، يسأل عن موضوع معرض الأطفال؟

- آه. جيد أنك ذكرتني. سنقيمه، ونتكفل بنفقاته كُرمى للأطفال. قم بالترتيبات اللازمة، واتصل بالمدرسة المسؤولة عن الأطفال، وبتلك الجمعية الخيرية.

لم يعجبها وجود اسم جمعية خيرية في معرض الأطفال. فأخبار الاختلاسات وسرقة أموال الإعانات تملأ الصحف، ولا تريد أن تخوض في هذا المجال. ودّت لو أقامت لهم المعرض لوحدها، وسلمتهم المال ليرسلوا به إلى سوريا دون وساطة من أحد. لكنها تعلم تمامًا أن هذا الوقت، وهذه الجبهة، هما وقت وجبهة الجمعيات الخيرية، الخيرة منها والسيئة. تعرف مقدار تعاطف الناس مع الكارثة السورية واحتياجهم لأن يساهموا بأي شكلٍ من الأشكال لرفع الغمّ عن الشعب السوري. وهنا يأتي دور الجمعيات: شيعية وسنية، سلفية وإخوانية، وجمعيات أخرى تنبت كالفطر في صحراء الكويت. لكن لا سبيل إلى جمع التبرعات إلاّ من خلال واحدة من تلك الجمعيات تبعًا لقوانين الدولة ووزارة الشؤون التي تدعي أنها تتابع كلّ فلس يدخل ويخرج من تلك الجمعيات!

راحت تتمشى في الغاليري، كملكة تتفقدُ رعاياها. تستمتع بنهارها في المعرض، حتى وإن كان ضغط العمل خانقًا. تفرح برؤية

الرسومات والألوان والحرية. تتنقل بين اللوحات لوحة لوحة، تبتسم لها كأنها تُحييها. تُدقّق النظر ببعض تفاصيل لم ترها سابقًا، فيخفقُ لها قلبها وتفرح بلذة الاكتشاف، فتحادثها سرًّا. ألم يقولوا إن الحديث مع النبات يسعده ويشجعه على النمو؟ هذا ما تفعله هي مع الفن. تبني علاقتها مع كلّ قطعة من قطعها الفنية.

وحده الفن يُنسيها عذاباتها ويخرجها من عوالمها المظلمة ويفتحُ لها بابًا على الهدوء والسكينة. ها هي تقفُ بفرح أمام شحنة اللوحات التي وصلت هذا الصباح، كان حميد قد طلّبها للمعرض منذ أشهر. بدأت بفتح الصناديق بمساعدة راجو وطارق. وكما أم تنزع الملابس عن جسد رضيعها الصغير، تتأنى وهي تنزع الأوراق والأغلفة. بحنان ورقة تأملت اللوحات واحدة تلو الأخرى والابتسامة لا تكاد تفارق شفتيها، حتى توقفت عند لوحة لراقصين يميلان باتجاه واحد حتى ليُصبح الجسدان جسدًا واحدًا على هيئة قوس مشدود على خلفية حمراء صارخة. «لا بدّ أنها للفنان العراقي جبر علوان». أحمره مميز، مشع، صارخ، راقص. نظرت أسفل اللوحة فوجدت توقيعه. فرحت بينها وبين نفسها لخبرتها التي صارت تتضح يومًا بعد يوم. «لم تذهب دروس حميد هباءً إذن!» همست مزهوة. تعشق الأحمر في لوحات علوان، وتحب تلك الانحناءات الراقصة في نسائه. التفتت لطارق:

- سأحتفظ بهذه. من فضلك ضعها مكان اللوحة المعلقة خلف مكتبي. أحببت فرح الأحمر بها.

- تعرفين أنه أقام معرضًا هنا منذ سنوات في صالة الفنون في ضاحية عبد الله السالم. فنان رائع، وإنسان أروع. قابلته وأجريت معه لقاءً لصحيفة الجامعة يومها.

- أتمنى التعرف إليه، قرأت مرة أنه يعيش في روما. ربما عندما أزورها تسنح لي فرصة لقائه.

أخرجت باقي اللوحات، وأعطت تعليماتها بتعليق ما أرادت منهم ثم التفتت لراجو صبي المعرض. تشبهه أحياناً ببطل فيلم المليونير المتشرد. نحيل، أسمر وذكي. بعد شهور على عمله في المعرض، أصبح يفهم بالفن والفنانين ويستطيع أن يخمّن اسم الفنان من النظر إلى عمله. يبدي رأيه بالأعمال ويناقش طارق بكلّ جدية. تحبّه عندما يناديها «ماما فلاور». يقول: «أنت مثل ماما مال أنا، وايد حلو». طلبت منه فنجاناً من الشاي الأخضر، فبحسب تعليمات عادل الصحية، هذا المشروب يكافح أكسدة جسمها. «هو لا يعي أني بحاجة لأطنان من الشاي الأخضر لتحارب أكسدة روحي.»

شربت الشاي وأنهت بعض أوراق كانت على مكتبها ثم فتحت بريدها الالكتروني. رسائل كثيرة: دعايات وإعلانات، ونكت ودعابات. بين كلّ هذا قرأت اسم وليام أشكروفت. ابتسمت وفتحت الرسالة:

أيتها الوردة الجميلة...

إليك بعض الصور عن ساحل أمالفي الإيطالي. ربما يوماً ما ستزورينه وإن كنت محظوظاً.. سأكون أنا هناك بالصدفة!

ألحق كلمة صدفة بغمزة إلكترونية جعلتها تقهقه.

محبتي.

بيل.

ملاحظة: عطرك لم يفارقني منذ أن رأيتك.

حملت حقيبتها الرياضية وخرجت من المعرض. تحتاج أن تلهي نفسها بأمر ما. أن ترتب هذه الفوضى التي تعيث بداخلها. أن تفهم ما الذي دهاها. وصلت إلى نادي الكورنيش الرياضي. للمكان رائحة خاصة، رائحة معقمة نظيفة. لا تدري إن كانت تظهر تلقائية من المنظفات والكلور الذي يستعملونه لتعقيم المياه، أم أنهم يرشون شيئاً في الجو للتغطية على روائح العرق التي تنضح بها الأجساد؟ تجاوزت المدخل وأكملت سيرها بجانب الصالة المطلة على حمام السباحة. توقفت للحظات وهي تمتع نظرها برؤية الزرقة في حمام السباحة ومن خلفه البحر. لفت نظرها عددٌ من الفتيات والشباب يستلقون تحت الشمس. لوهلة تساءلت: «كيف يمكنهم تحمّل حالة الشواء تلك؟ في غضون ساعة ستُطهى أجسادهم وتنضج أدمغتهم تحت هذه الحرارة». أكملت طريقها وصعدت الدرج باتجاه صالة التمرينات. توجهت نحو جهاز المشي الذي اعتادت التمرين عليه، فوجدت منيرة خارجة من غرفة التمارين وهي تتصبّب عرقا. أرادت أن تقبّلها، لكن منيرة صدتها معتذرة بسبب عرقها. سألتها بفرح:

- ماذا تفعلين هنا؟ لم أعرف أنك اشتركت في النادي؟

سحبت منيرة منشفة من الخزانة المفتوحة بجانبها وراحت تجفف نفسها وهي تضحك بدلعٍ:

- أنا لا ألعب رياضة مثلكم. لا أحبها. كنت في درس الرقص.

فوجئت زهرة بفكرة الرقص ثم عادت ومحت مفاجأتها عندما نسبتها لمنيرة:

- درس شنو؟ انت تعرفين ترقصين ياختي، ولست محتاجة لدروس.

- لا حبيبتي... هذا رقص مختلف.. رقص (سيكسي) رقصات أميركا اللاتينية، التانغو والسامبا.

- مممممم! ومنكم نستفيد. كلّ عمري كنت أتمنى تعلم التانغو، عندما تتقنين الخطوات علميني.

نفضت منيرة يدها يائسة مداعبة:

- أنت لا فائدة منك لا برقص السامري ولا بالنقازي ولا بالشرقي ولا بالغربي. لكن تعالي.. أراك في أحسن حال يا زهرة، حتى لونك تغيّر وبدأ الدم يعود إلى وجنتيك. هل كسبت بعض الوزن؟

استغربت أن تكون حالتها الجديدة ظاهر للعيان إلى هذه الدرجة، تلعثمت:

- ربما قليلاً... إلّا أني فرحة برؤيتك. هل ستسافرين لعرس ليلى في بيروت؟

- طبعاً.

- إذاً جهزي نفسك لسفرة معتبرة. اتصلي بي لنتفق على التفاصيل.

تركتها تمسح عرقها وتمشي بعيداً عنها بغنج واضح بينما زهرة تتأمل قوام صديقتها. منيرة تجتهد بالمحافظة علىً جمالها ولا تتوانى عن تجربة أي شيءٍ في سبيل إطالة عمره وعمرها. مربوعة القوام ذات بشرة بلون لفحته الشمس بخفة، وشعر بني طويل تتخلله خصل شقراء. لها عينان خضراوان تشعان كلما انفعلت، وهي كثيراً ما تنفعل.

في البيت، حاولت زهرة أن تبعد من رأسها صورة حسيبة،

كما تحاشتها عند دخولها العمارة. ركضت إلى الكومبيوتر. فتحت صفحتها، وكأن هناك من ينتظرها. لم يكن هناك. ترك رسالة: «طرقت على شباكك ولم تفتحي... سأكرّر المحاولة مساء».

استاءت أن تفوتها تلك الدقائق القليلة من المتعة؛ وإن كانت ترفض الاعتراف بتوقها لها. حاولت أن تُلهي نفسها عن هذا الفرح المفاجئ الذي دخل حياتها وقلب كيانها. التفتت لمكتبتها الصغيرة تتفقد أشياءها وما تحفظه في رفوفها؛ هنا رواياتها التي قرأتها والتي ما زالت تعيد قراءتها مرة بعد أخرى. على الرف الآخر صور ولديها في حفل التخرج. تخيلت نفسها على الرف السفليّ لا أحد يمسحُ عنها الغبار. أوجعها الخيال وما رأت فيه. رفعت الصورة في خيالها، مسحت عنها الغبار فلم يُمسح، حاولت مرة أخرى فوجدته رماداً ملتصقاً بزجاج البرواز، أعادت الصورة إلى الرف، وأشاحت بخيالها عنها.

أخذت تُعيد ترتيب محتويات المكتبة ورفوفها التي رتبتها بالأمس. فتحت أدراجها وأعادت تنظيم محتوياتها. كان عادل يتهمها بالوسواس. لم يكن يدري أن هذا العمل الرتيب وإعادة تنظيم كلّ شيء، يساعدها على ترتيب أفكارها وينسيها همومها. كلما وجدت نفسها مكتئبة أو مضطربة، نفضت محتويات خزانات المطبخ وأعادت ترتيبها، أو فتحت خزانات الملابس وأعادت تنظيمها. تريحها هذه العملية، تهرب بها من أيامها ومللها، وتسرع في انقضاء وقتها الرتيب. فكّرت وهي تنفض الغبار عن كتبها: «تقول الدراسات إن القيام ببعض التنظيف والترتيب عند الشعور بالاكتئاب، يجلب الراحة والصفاء. ها أنا أحاول».

راحت تتأمل كتبها التي تحب، كانت تلجأ لكتبها دائماً، إذ عندما تخذلنا الحياة تصبح دفتا الكتاب ذراعين قادرتين على احتضاننا،

ومن غيرها يعلم كم من كتب احتضنتها منذ أن كانت طفلة. تعودت أن تقرأ. تقرأ أي ورقة تقع في يدها حتى لو كانت وصفة لدواء. عندما دخلت الجامعة لتتخصص في الأدب الانجليزي، راحت تقرأ معظم الروايات بالانجليزية. كانت تشتري كتبها من مختلف المكتبات في الكويت، لكن بعد قانون الإعلام الجديد ومنع الكثير من العناوين المهمة، أصبحت تستجلب رواياتها من بيروت أو القاهرة. تسلم قائمة لكلّ صديق مسافر مستعد أن يثقل حقيبته بكتب.

كانت تحب الأدب العالمي وخاصة الروسي منه. كانت ترى آنّا كارنينا تُشبهها، وكثيرًا ما تفاعلت وتعاطفت معها وانخلع قلبها لنهاية آنّا كارنينا التي لا تستبعدُ كثيراً أن تكون نهايتها مقاربة منها. لكنّ واقعها لا يسمح لها أن تكون بطلة تولستوي، فالعالم غير عالم والزمن غير زمن. مرت بيديها على الكتب المصفوفة على الرف، فوجدت رواية (العنبر رقم 6). أمسكت رواية تشيخوف وراحت تعيد قراءة صفحاتها. وجدت أنها وضعت خطوطاً تحت أسطر معينة. لا تذكر متى وضعت تلك السطور والعلامات، هل عندما قرأت الكتاب لأول مرة عندما كانت تدرس في الجامعة، أم لاحقاً بعد أن تزوجت؟ «لا فرق.. فالحال على ما هو عليه». همست. توقفت عند عبارة: «الحياة فخ محزن». هل هو تشيخوف يربت على كتفها؟ «انظري، هذه حياتك». كأنها وقعت في فخّ لا مهرب منه. قرأت: «جاء الإنسان إلى الحياة من العدم رغم إرادته بفعل عوامل عارضة، فلماذا؟ إنه يريد أن يعرف مغزى وهدف وجوده، فلا يقال له». سرحت مع الكلمات. إنها تعيش العدم. لا تعي سبباً لحياتها ولا هدفاً. إن اختفت الآن من الحياة فما الذي سيفرق. من سيفتقدها! زوجها؟ بالطبع لا. ولداها؟ ليوم، لشهر، لعام ثم تسرقهم الحياة. أصدقاؤها؟ سيجدون بديلاً عنها. أهلها؟ ربما كانوا أفضل حالاً بدونها.

إذن، ما مغزى وجودها؟ وما معنى هذه الحياة التي تحياها رغمًا عنها؟ سيقولون: من أين لك الحزن وأنت تملكين كل شيء؟ البعض يستكثر الحزن على الأغنياء ولا يدرك أن حزنهم يكون أعمق وأقوى بسبب غناهم.

حاولت أن تخفف من اليأس الذي دبّ الى قلبها فجأة، نظرت إلى الساعة المعلقة يمين الجدار، إنها السابعة تقريبًا. كم تكره هذا الوقت من المساء. منذ أن كانت طفلة كان وقت الغروب يدخلها بحالة اكتئاب، كونه وقت عودة رجال البيت. يوم آخر على وشك أن ينتهي من أيام عمرها، تراقب الشمس وهي تغطس في البحر، تحس بأنها تختنق، تتألم فيحمر جلدها، تغطس أكثر. ترى أصابعها تستطيل إلى السماء وكأنها تتشبث بالسحاب. لكن لا مفرّ. يبتلعها البحر مبتلعاً نهارها أيضاً.

شغّلت التلفزيون، تنقلت بين المحطات، توقفت عند محطة تعرض برنامجاً وثائقياً عن مدينة حمص السورية، أو عما تبقى منها. زادتها صور الدمار، ومناظر الدماء أسى وحزناً، فازداد قلبها ثقلاً. تذكرت اللوحات الصغيرة على مكتبها التي رسمتها يد الطفولة. تذكرت الأحمر القاني الذي رسمت به أغلب اللوحات... أقفلت التلفاز وقامت من مكانها.

هكذا هو الوجع يحيط بها من كلّ جانب حتى لا تكاد تجد فسحة للهرب.

قامت لتتصل بحميد. لم يبقَ لها غيره رفيق حزنها. هو الوحيد الذي يسمعها ويتفهم احتياجاتها. ربما وحده من سيفتقدها.

قبل أن تمسك هاتفها، سمعت رنة الرسائل الخاصة من جهاز

الكومبيوتر المستلقي على طرف الكنبة. كأنه همس باسم بيل سرًّا. قفز قلبها، فتحت الصفحة. تمددت شرايينها واتسعت ابتسامتها.

- أهلاً بيل.

- وصلتك صور الأمالفي؟

- نعم، شكرًا. جميلة جدًا.

- ستزورينها يوماً. هذا وعد مني.

ردّت بمرحٍ ظهر عليها فجأة:

- ما هذه الثقة؟ وكأنك تتنبأ بالمستقبل.

- نعم يا سيدتي. نحن نملك الكثير من المواهب التي لا تملكها الشعوب الأخرى، فنحن أحفاد إمبراطورية الإنكا، ونحن من جلبنا عمالاً من الفضاء الخارجي لبناء أهراماتنا وحضارتنا، هل سنعجز عن أمر تافه كالتنبؤ بالمستقبل؟

ضحكت وهي تطبع حروفها منتشية:

- الفضاء الخارجي؟

- نعم... فحضارة الإنكا في أميركا الجنوبية يلفها الكثير من الغموض، مثل حضارة الفراعنة لديكم، والبعض ذهب إلى القول أن رجال الإنكا استدعوا رجالاً من العالم الآخر ليساعدوهم في بناء دولتهم، لروعة الإرث الذي تركوه.

«كأنه نسمة هواء باردة في نهار كويتي قائظ. كلّ ما به مختلف وجديد»، فكرت. شكله، حديثه، منطقه، أسلوبه، حتى غزله مختلف.

أرادت أن تعرف عنه أكثر، راح يحكي لها. لم يكن أعزب كما تمنت ولا متزوجاً كما كانت تخشى، كان مطلَّقاً ولديه ابنة في الرابعة عشرة من عمرها تعيش في أميركا مع أمها. يزورها وتزوره أثناء العطل المدرسية، وتبقى معه أثناء إجازتها الصيفية في لندن. عندما سألته عن سبب طلاقه، تهرب من الموضوع. أحياناً عندما نطوي صفحة لا نودّ إعادة فتحها... هكذا برّر لها عدم الرغبة في النبش في ماضيه، ثم غيّر الموضوع بجملة حفرت في قلبها خطًّا عميقًا:

- لطالما شعرت أنَّ لي جذورًا عربية. شيء ما يشدني إلى هذه البقعة من العالم... ربما كانت دائماً... أنت!

استمر حديثهما لساعات لم تدرك عددها إلاَّ حين سمعت صوت مفاتيح عادل في الباب. اعتذرت من بيل، ومحت المحادثة من الجهاز. لكنها لم تستطع محو آثار هذه السعادة الطارئة على وجهها.

منذ ذلك اليوم أصبح «الفيسبوك» صديقها ورفيق لياليهما، وكان بيل يظهر لها كل يوم تقريبًا. تكلمه عادة الرابعة بعد الظهر، حوالي الثانية عصراً توقيت لندن، محادثة قصيرة. ثم حوار طويل ليلاً بلا موعد، حسب الصدف، وبيل يؤمن بالصدف كثيرًا. كان (يصادفها) كل ليلة حوالى الثانية عشرة ليلاً بعد أن يغط زوجها في نومه العميق. كان عادل قد اقترح عليها، مؤخرًا، أن يناما في غرفتين منفصلتين بعد أن اشتكت من شخيره، لكنها رفضت. تبرع أن يذهب هو لينام في غرفة الأولاد، لكنها أصرّت عليه أن يبقى. ما زال لديها بقايا أمل... «ربما، ربما!»

بيل لا يختفي إلّا عندما يكون مسافراً إلى بلد ما ليعقد صفقة مالية ما، يغيب دون أن يعلمها. فتدرك أنه إما في موسكو، أو في الدوحة،

أو شانغهاي. يسافر كثيرًا، ويعرف كثيراً. يبهرها بمعلوماته وثقافته. كانا يتحدثان في كلّ شيء وأي شيء. يناقشان السياسة الأميركية في الشرق الأوسط والعراق وسوريا، ثم ينتقلان إلى أصل الإنسان ونظرية النشوء التي تقبلها الغرب وحتى الفاتيكان مؤخراً ولم يقبل مناقشتها المسلمون. وأحياناً كثيرة يتحدثان في الغيبيات والأديان والسياحة والسفر. كانت تندهش لاستغراقها بأحاديث ثقافية وسياسية مع بيل، بينما كان عادل يستكثر عليها نقاش أمر بسيط كحجوزات طائرة. كان رأيها بالنسبة لعادل، إضافة مزعجة لا لزوم لها.

أجمل أحاديثهما كانت عن الأدب والشعر. أحاديث ممتعة ومغرية، كانت تستمر لساعات لا يحس بمضيها أي منهما. عندما قالت له: إنها تشعر بأحاسيس غريبة لأول مرة في حياتها، قرأ لها مقولة لبورخيس: «»كل شيء يحدث للمرة الأولى لكن وفق نموذج الأبدية.» عرفها على كاتبه المفضل، الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس، وحكى لها عن حياته وكيف فقد نظره في آخر أيامه وكيف ادعت سكرتيرته، بعد موته، زواجه بها لتنشر كتاباته وتقبض الملايين عنها.

قرأ لها يومًا مقطعًا من قصيدة بورخيس لسبب فهمته لاحقاً:

تتعلّم

بعد فترةٍ تتعلم الفرق الواهي

بين الإمساك بيد وبين تكبيل روح،

وتتعلّم أن الحب لا يعني الاتكاء

وأن الصحبة لا تعني الأمان.

في اليوم التالي، راحت تبحث عن كتب له، فلم تجد إلّا كتاب

الرمل، بترجمة سيئة، فاتجهت للكتب الإلكترونية وأصبحت تسهر مع بورخيس معظم لياليها.

سألته يومًا:

- ما سرُّ إعجابك بي على هذا النحو؟ كيف تجرأت واقتربت مني، وأنت تعرف العقلية العربية والمحرمات في مجتمعاتنا؟

أجابها بهدوءٍ:

- شيءٌ بك كان يناديني.

- لعلك أسأت الفهم.

- صدقيني... إن الذي كان يناديني بك أكثر من الذي كان يناديك بي.

10

ياسمين

وجوه بريئة. ابتسامات جميلة وأصابع صغيرة كلّ منها تشير إلى لوحتها. حفل افتتاح معرض «أطفال الكويت من أجل أطفال سوريا». أسابيع مرت وهي منشغلة عن العالم مغلقة كلّ النوافذ حولها، تحضِّر وتتحضَّرُ لهذا المعرض. الأطفالُ نقطةُ ضعفها ببراءتهم ونظراتهم الصادقة، لذا، قررت أن تفرحهم وتحقّق لهم رغبتهم بمشاركة أطفال سوريا بشيء يعبِّر عنهم، ومن خلالهم. تمنت لو كان بمقدورها أن تُبهجَ أطفال العالم أجمع فلا طفل يستحق دمعةً أو عذابًا.

صالة المعرض تضجّ بالضيوف الذين دعتهم زهرة لحفل الافتتاح. نواب مجلس أمة، وزراء، فنانون، إعلاميون، والصحافة طبعًا. راحت تنقل خطواتها في المعرض بزهو، والابتسامةُ لا تفارقها. تسلّم على هذا وتصافح ذاك. صديقاتها فقط كن حولها فخورات بعملها. أخواتها بالطبع لم يحضرن؛ لأنهن لا يختلطن بالرجال في أجواء يعتبرنها: «ماجنة». وكالعادة، زوجها كان في رحلة عمل لكن هذه المرة ليوم واحدٍ إلى دبي، بالرغم من أن موعد المعرض كان قد حُدِّد منذ شهر. رحلةً ظهرت فجأة بعد حديث طويل على الهاتف مع أحد عملائه قضى معظمه في غرفة المكتب يتحدث بصوت منخفض... كم تكره سريته وغموضه!

لم تذق طعم الفرحةِ منذ زمن. كثيرةٌ هي المعارض التي ضمّتها هذه القاعة وضمّها قلبها، لكنها المرة الأولى التي يحتضن قلبها الأطفال. ورغم وجعها كأمّ، إذ غاب عنها في هذا اليوم ولداها أيضًا وكلّ مَن يفترض أن يكون قريباً منها، إلّا أن قلبها اتسع ليكون القاعة ومكاناً لفرحة افتقدتها طويلاً.

وقف حميد بجانبها مزهوًا بفكرته وإنجازه. كان مشغولاً يستقبل الضيوف، يقف مبتسمًا أمام عدسات الكاميرات، يرتب مبيع اللوحات ويستلم التبرعات ومع هذا كلّه، كان يجد الوقت ليداعب زهرة بنكاته المعتادة:

- شفتي؟ لو لم أكن رجلاً قدها وقدود، لما استطعت أن أنظّم لك احتفالاً كهذا، وأجمع لك كلّ هؤلاء (الدفيعة).

- يا عزيزي أنا أحياناً أعتقد أني احبك لأنك لست رجلاً مئة بالمئة... أنا أكره الرجال الكاملين.

- لا يا حبيبتي..انتبهي.. أنا رجل ونصف امرأة.

وفرت ضحكته المجنونة التي جعلت كلّ من في المعرض يلتفت مستغرباً.

راحت تتابع فرح الأطفال بأعمالهم وهم يشرحون للضيوف معنى كلّ لوحة. زاد عدد اللوحات عن سبعين لوحة، معظمها باللون الأحمر، اللون الذي باتوا يشاهدونه يوميًا على الشاشات. جاءت معظم الرسومات موجعة، يقطر منها رعب الأطفال وخوفهم من غدهم. نيران ولهب، انفجارات وسيارات إسعاف، شهداء وجنائز صور لا يجب أن تختزنها ذاكرة طفل.

منيرة اشترت عدة لوحات دون حتى أن تنظر لها، بينما أخذت لولوة واحدة بها قليل من الزهور حول قبر شهيد. تقدمت سعاد بهدوءٍ وانتقت لوحة سوداء قاتمة. التفتت منيرة لها منزعجة: «لماذا هذه يا سعاد.. اختاري لوحة أكثر حياة، هذه لا يكاد يظهر بها أي شيء مفرح»؟ فردت سعاد منهية النقاش: «ربما لأنها تشبهني».

لم تسترح زهرة لحظةً، بل أعطت كلّ ما تملكه من اهتمام وابتسام للحاضرين، تتجول بين ضيوفها تشكر هذا وتسلّم على ذاك. لفت نظر زهرة طفلة لا يتعدى عمرها السابعة، تقف وحيدة أمام لوحتها. اقتربت منها:

- ما اسمك يا حلوة؟

- اسمي فرحة.

- اللّه... ما أحلى اسمك. وأنت كالفرحة يا فرحة.

أريني لوحتك.

رفعت إصبعها الصغير بخجلٍ وهي تشير إلى لوحة بيضاء بها بعض الخطوط التي تشي بوجود أزهارٍ.

- جميل يا فرحة... اشرحي لي عن لوحتك يا حبيبتي.

- هذه لوحة الياسمين الشامي، تشوفينه؟

- بلى حبيبتي... أشوفه.

فقاطعتها:

- الياسمين أبيض والصفحة بيضاء، لم أعرف كيف ألون الياسمين، فتركتها بيضاء.

مسحت على رأسها بحنانٍ وسألتها:

- وكيف عرفت الياسمين يا حلوة؟

ردّت بعفوية:

- أمي شامية، ودائماً تبكي وهي تقول اشتقت لياسمين الشام. فرسمت لها الياسمين حتى تتوقف عن البكاء.

لم تكن زهرة بحاجة للكثير كي تهز كلمات هذه الطفلة أعماقها. ضمت فرحة إلى حضنها، وغشي الدمع عينيها. تكاد تقسم أنها شمت رائحة الياسمين في صدر الصغيرة.

فجأة ومن بين الوجوه الكثيرة، بان وجه بيل. اختفت ابتسامته عندما رأى دموعها. وضع يده على كتفها وكأنه يريد احتضانها:

- ما المشكلة؟ لم هذه الدموع؟

تصنعت الابتسام:

- لا شيء. تبًّا لدموعي، هي دومًا هكذا قريبةٌ وتهطلُ دون سيطرة.

مسحت عينيها، وسألته متعجبة:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لم تخبرني بموعد قدومك إلى الكويت.

- أحلى المواعيد تأتي بلا موعد! كنت في رحلة عمل إلى الرياض وصلت الكويت اليوم صباحًا، لأجلك فقط... أغادر غدًا.

ياه! لم تعد تتذكر آخر مرة قام أحدهم بعمل شيء ما من أجلها، ومن أجلها فقط.

تذكرت واحدًا ممن كادت أن تضعف تجاهه لتنجح في مشروعها. قال لها يومًا: إن تردده على النادي من أجلها فقط. كانت تعرف جيدا أنه كذاب، لكن كذبه حلو. كان يمازحها كثيراً بخفة دم لا نظير لها، ويتلاعب بالألفاظ ليغازلها فتطرب لكلماته، وتسعى للمزيد.

ذات مرة، وكانت قد مشيت على جهاز المشي لمدة ساعة، فاجأها بقوله: تبدين مثيرة وأنت مبللة بعرقك. صدمتها جرأته، وأسعدتها وقاحته، لم تشأ أن تتراجع ولم تكن مستعدة لتكمل مشروعها. ترددت بين الابتسام والعبوس، فشكل وجهها لوحة سوريالية غير مفهومة.

تذكرت عادل وكيف يعاملها وتذكرت ذات مرة حين انشغلت بإعادة ترتيب وتنظيف خزائن المطبخ لنصف نهار، كانت معلقة على السلّم عندما شعرت بدخوله المنزل، تعمدت رفع فستانها البيتي حتى منتصف فخذيها. عندما دخل المطبخ ورآها، رفع عادل حاجبيه استنكارًا:

- ما هذا المنظر؟ انظري إلى نفسك ووسخك وعرقك. لماذا لا تدعين جولي تقوم بهذا الشغل. أنت ترتقين السلم وهي تجلس تنظر إليك؟

لم يكن يفهم أن وسواسها بالنظافة والترتيب كان يلهيها عنه. حدثت نفسها: «لم ير ساقيّ، ولم يُثِرْه عرق. لم ير سوى انعكاس قبحه!»

غضبت من نفسها لاستدعائها تلك الذكرى البشعة وهي في حضرة الفرح. فرحت بوجود بيل. تأملته بعين جديدة. كانت إحدى المرات القليلة التي تمنّت أن تحضن بها رجلاً لا أن يحضنها. كان وسيماً وجميلاً من الداخل أيضًا. رأته كتفًا تلقي عليها همومها، في وقت باتت تؤمن فيه أنها لن تجد كتفاً لتستريح عليها. التفتت حولها، وعندما أدركت أن لولوة ومنيرة وسعاد غادرن جميعهن، سحبته من يده ودخلت معه مكتبها الصغير:

- اجلس.

- وضيوفك؟ والأطفال؟

- لا تقلق، هناك حميد، والمساعدون، والمدرسون.

لاحظ اللوحة المعلقة خلف طاولتها، علّق:

- أراك مهووسة بالتانغو.

- إنها لوحة لفنان عراقي مشهور.. أحب ألوانه وتكنيكه.

ترددت، ثم ترددت.. ثم قالت:

- سعيدة جدًا لأنك هنا. شكراً لمجيئك.

- لا تشكريني... أنا فعلت ما يسعدني، أي بأنانية خالصة. لكن قولي لي، لماذا أنت حساسة بهذه الطريقة؟

لم تشأ أن تنغص سعادتها بالحديث عن الحرب والدم والدموع، لكنها لم تستطع الاّ أن تقول:

- أنا حساسة تجاه الأطفال فقط. أسباب كثيرة لا وقت لسردها

الآن. لا أتحمّل وجعهم، دموعهم، فكيف أتحمّل رؤيتهم بدمائهم؟ تقتلني صور أطفال سوريا يا بيل. لا أدري لماذا يسكت العالم تجاه هذه المجازر. ماذا ينتظرون؟

- يا زهرة، العالم كله مبني على المصالح. لا تصدقي ما يقوله لنا الساسة على الشاشات. هناك خطط ومؤامرات أخطر وأكبر منا. لا نستطيع فهمها.

- طيب وما ذنب هؤلاء؟

- في السياسة لا يوجد ذنب. كلّ ما هنالك مصالح. تذكري هذه الكلمة جيداً مصالح فقط. ولا بأس من سقوط بعض الضحايا. فالسياسي يمكنه التحالف مع الشيطان للوصول لمصلحته وأنت تعرفين مصالح الغرب في بلادكم.

تنهدت بألمٍ:

- في بلادنا كلّ شيء ارتفع سعره، إلّا الموت... أصبح بالمجان.

وقبل أن يعلّق، فتح باب المكتب. دخل حميد متبخترًا. عندما شاهد بيل، توقف فجأة نظر إليها ثم إليه، وانفرج وجهه عن ابتسامة عريضة. تقدم ليسلّم على بيل، مجبرًا زهرة على تعريفهما ببعض.

- أقدّم لك بيل اشكروفت، صديق. حميد خليل.. صديقي الأعز.

Nice to meet you!

قالها بيل باحترام. ابتسم حميد شكرًا له، ثم التفت لزهرة، وبغمزة وابتسامة كادت أن تكون ضحكة، قال بالعربية:

- خوووش ضحية. ليش ما حكيتيلي عنها؟

ثم همّ خارجًا وهو يتراقص:

- عندما تفرغي، اخرجي للأطفال، يودون وداعك وشكرك قبل مغادرتهم.

سألته بالانجليزية:

- ما حال البيع؟

ردّ بنفس اللغة متفاخرًا:

- صندوق التبرعات الذي وضعته الجمعية الخيرية عند المدخل امتلأ تمامًا. بعنا كلّ اللوحات، إلّا اللوحة البيضاء. صاحبتها قالت إنها لك.

- نعم.. نعم. هي لي. سأخرج لكم خلال دقائق.

اعتذرت من بيل، خرجت لصالة العرض. أوصت راجو أن يقدم فنجان قهوة للضيف في المكتب الخلفي. نزعت لوحة الياسمين عن الحائط، قبّلت فرحة، ووعدتها أنها ستحتفظ بلوحتها على حائط مكتبها. استغرقت أكثر من نصف ساعة وهي تودّع الضيوف وتشكر حضورهم، إلى أن غادر آخر الموجودين، والذي كان بالطبع حميد الذي مال عليها مازحًا:

- هل أرى وميض الحب في عينيك؟

دفعته بيدها مبتسمة:

- اسكت وعجّل بالخروج. بااي

تحب مداعباته، لكن ليس وقتها الآن. كأنها مبرمجة، وبدون

تخطيط، صرفت راجو، أطفأت الإضاءة في الصالة الرئيسية للغاليري، أقفلت الباب من الداخل، وهمّت بالعودة إلى غرفة المكتب. لم تستطع الرؤية بوضوح بسبب الظلمة المخيمة على المكان. راحت تتحسس طريقها باتجاه المكتب، قبل دخولها ارتطمت به خارجًا من المكتب. ضحكت. سألته:

- كنت تبحث عني؟

مدّ يده نحوها. استقرت بين كتفها وشعرها:

- لم أكن أبحث عنك، أنا تعثرت بك.

11

(بدون) رائحة

قبيل سفرهن إلى لبنان، انشغلت الصديقات الثلاث بالتحضير لحفل العرس. كانت زهرة قد اتصلت بصديقاتها لتعرف من منهن ستسافر إلى بيروت. منيرة ولولوة كانتا قد قررتا الذهاب وحدهما لأن الأزواج مشغولون، دائمًا، في التحضير لاجتماع خطير أو في إبرام صفقة مهمة. طبعًا اعتذرت سعاد لأميرة كونها لا تحمل جواز سفر: «بدون» بعيد عنك»، هكذا فسرت بؤس حالها وحال الآلاف غيرها لصديقاتها. «نحن نعيش كرهائن. الفرح ممنوع علينا في أرضنا، فكيف نسافر لفرح غيرنا؟»

لم تكن صداقتهن طارئةً على الزمن فماضيهن مشترك، واحدٌ رغم اختلاف حاضرهن. تعرفن إلى بعضهن البعض مذ كنّ يتسابقن مَن منهن ستتزوج أولاً. لم يكن السباق من أجل عريس أفضل أو منزل أفخم أو حساب مصرفي أكبر. كان الزواج بالنسبة إليهن حصانًا أبيضَ وفارسًا ممشوق القامة وثوب زفاف ناصع البياض كبراءتهنَّ. ما زالت مقاعد الدراسة تتذكر همساتهن الخافتة وضحكاتهن الخجولة. منيرة كانت أكثرهن استعجالاً، وقد استخدمت كلّ ما تملك من مواهب جسدية وتمثيلية للحصول على أكبر عدد من طلاب الزواج. رفض والدها بادئ الأمر خُطّابًا كثيرين بأعذار مختلفة. عذبها الأمر كثيراً.

مع قليلٍ من الصبر، وكثيرٍ من التصميم، وصلت إلى مبتغاها.

زهرة، لم تكن بعجالة منيرة. بعد سنتين، انضمت لمنظومة الزواج. ستة أشهر قصيرة فصلت ليلة زفافها عن عرس لولوة، تلك المؤدبة، المهذبة، الـ (ست البيت) كما دأبت أمها أن تناديها، ربما لتعوّض النقص في جمال ابنتها.

ها قد قطعن سنوات من الحفاضات وقناني الحليب والدموع والمشاجرات. استبدلنَ بالفارس والأحلام الوردية ونهايات الأفلام العربية؛ أزواجًا جثموا على صدورهن حتى حفظنَ كلّ ما بهم وما لهم وما منهم، عن ظهر قلب. في النهاية، كلّ واحدة منهن إلى نصيبها، باستثناء سعاد.

«تزوجتُ الطبَّ»، هكذا كانت تجيب سعاد، كلَّ من يسألها عن سبب عدم زواجها. كانت قد اتخذت قراراً بعدم الزواج وهي في عداد الـ (لا أحد). اللقب الذي نعتتها به أم عبد الرحمن، عندما اعترف لها ابنها أنه يحب بنت (بدون) ويريد أن يتزوجها. جُن جنونها وهددته أن تتبرأ منه إن تجرأ وتزوج من هذا الصنف، فلا هم كويتيون ولا هم من جنسية أخرى. إنهم (لا أحد).

لم يصبح البدون الكويتيون (لا أحد)، إلّا بعد الغزو. قبل ذلك كانوا يتمتعون بكلّ ما يتمتع به المواطن الكويتي، من صحة وتعليم مجاني ووظائف. كانوا أهل البلد وإن لم يحملوا جنسيته. عندما عاث الغزو بالبلد خرابًا، فعل فعلته في نفوس البشر أيضًا.

كلّ شيء كان متوفرًا لسعاد ابنة الثامنة عشرة وهي على أبواب التخرّج من الثانوية العامة، كان والدها راكان برتبة وكيل ضابط في الجيش الكويتي، يصطحبها كلّ صباح إلى المدرسة ثم ينطلق إلى

عمله مدربًا في مدرسة الأغرار، المنتسبون الكويتيون الجُدد في رئاسة الأركان. يعود عند الظهيرة حيث يجدها تنتظره قرب باب المدرسة، لتحكي له عن يومها ومدرّساتها وصديقاتها ونتائج امتحاناتها، كانت تحكي وتحكي طوال الطريق، وأبوها لا يشبع من كلامها. كانت سعاد الأملَ الذي انتظره طويلاً. وكان يدرك أن لا شيء يمكنه أن يقف في طريق تحقيق حلمها الذي لن يتحقق إلّا بالمثابرة: أن تصبح دكتورة رغم أنف الأقدار.

جدت سعاد، واجتهدت، إلى أن تخرّجت خامسةً على مستوى الكويت من الثانوية العامة سنة 1990. حلمت مثل كثيرات وهي ترفع علم الكويت في طابور الصباح مردّدة: «تحيا الكويت، عاش الأمير، تحيا الأمة العربية»، أن تكون طبيبة، ولم يدر في خلدها أن الأقدار لها رأي آخر وأن ثمة أبوابًا سيغلقها الزمن في وجهها.

بعد الغزو، أقيل أبوها من عمله في وزارة الدفاع، بعد أن تمّ عرضه على واحدة من اللجان التي شُكّلت لتقرير مصير آلاف من البشر: (أنت تصلح لأن تظل في الجيش وأنت لا تصلح). عندما طلبوا منه تصحيح وضعه أي شراء جواز سفر من أي دولة، رفض:

- أنا كويتي وأبي وجدي دفنوا في هذه الأرض ولا أعرف غيرها وطنًا، ولم أشم إلّا رائحة رملها.

لم تكن مأساتهم خاصة. عمّها الذي استشهد في الأيام الأولى للغزو، مدافعًا عن قصر دسمان، قصر الأمير، ظلّ أولاده مصنفين كـ (بدون). مات أبوهم دفاعًا عن وطن يرفض انتماءهم. ظلوا بلا مدارس؛ يعيشون على معونات الجمعيات الخيرية.

رُفض طلب سعاد الالتحاق بكلية الطب في جامعة الكويت،

فراحت تُحصي خياراتها. لا يحقّ لها الدراسة، لا يحقّ لها التوظف، لا يحقّ لها السفر، إضافة إلى العديد من اللاءات الأخرى. غلبها اليأس، إلى أن التقت بعبد الرحمن، أخ لصديقتها عهود، أولاد عم زهرة. كان قد وصل من السفر فجأة ودخل غرفة أخته ليبارك لها خطبتها عندما وجد سعاد جالسة مع أخته في غرفتها. سألها:

- من تلك أم الفستان الأخضر؟

- مو شغلك.

هكذا كان ردّها. إلّا أنها أصبحت شغله الشاغل وكلّ ما يفكّر به.

توطدت علاقة سعاد بعبد الرحمن، عبر أخته عهود وابنة عمهما زهرة. كان يستعين بهما للاتصال بها والاتفاق على المواعيد. كانت تحكي له عن أحلامها التي ماتت على أرصفة البيروقراطية الحكومية، وعن الظلم الذي تعرضت له عائلتها. تعلق عبد الرحمن بسعاد وأحبّها بصدق. تعلق بها أكثر حين وجد فيها فتاةَ أحلامه، والصبية العنيدة التي شغف بها. أراد أن يساعدها على تحقيق حلمها. ساندها، وقف معها وشدّ من أزرها. كان لعبد الرحمن اتصالات بكثير من الشخصيات الكويتية التجارية. وكان أبو طلال واحدًا منهم. عندما سمع بقصة سعاد وتفوقها، تبرع أن يتكفَّل بمصاريف دراستها بأية جامعة إن حصلت على قبول فيها.

طارت سعاد فرحًا عندما سمعت الخبر، وراحت تراسل كلّ الجامعات التي تعرفها، إلى أن تم قبولها في جامعة الخليج في البحرين. تقدمت إلى إدارة الجوازات للحصول على (جواز مادة 17) والذي يمنح للبدون الدارسين. طلبوا منها أوراقًا ومستندات وشهادات عدة: إثبات القبول بالجامعة، إحصاء 65، ميلادية، موافقة لجنة المقيمين

بصورة غير قانونية، وغيرها. حبّها لعبد الرحمن نما معها طوال تسعة أشهر قضياها بصحبة عهود وهم يتنقلون من وزارة إلى أخرى إلى أن جهزت سعاد الأوراق اللازمة. عندما تمت لها الموافقة، ودعها عبد الرحمن وهو يعدها أنْ سينتظرها، فتشجعت على ركوب الطائرة لأول مرة في حياتها، مغادرة وطن لم تعرف سواه.

دأب عبد الرحمن على زيارتها بين فترة وأخرى في البحرين، للاطمئنان عليها، هي التي لا تستطيع العودة إلى الكويت حتى لا تثقل كاهل أهلها بمصاريف إضافية. تزوجت أختها سميرة من شاب كويتي يعمل في النفط. إلّا أنها لم تستطع حضور عرسها. كانت الغربة ثقيلة على قلبها، لكنها كانت مصرّة أن تلاحق حلمها حتى تعيشه واقعًا حقيقيًا.

في سنتها الجامعية الثالثة لم يعد عبد الرحمن يُطيق فراقها، فقرر أن يتقدّم لها. وليته لم يفعل، إذ لاستمر حبهما، ربما، ولما سمعت منه تلك الكلمات التي حفرت في قلبها عميقًا.

افترقا... وقد وعد كلٌّ منهما الآخر بحب لا يزول. لكن عبد الرحمن تزوج من فتاة كويتية، ابنة تاجر كبير ذي حسب ونسب، وتزوجت سعاد الطب بعد فراقها عن عبد الرحمن، أقسمت ألّا يمسها أحد، وألّا تنجب ضحية جديدة من الـ «بدون» لهذا البلد. بلاد لا يتعدى شعبها مليوني نسمة، بمدخول مالي هائل، وتبخل على أبنائها بحمل جنسيتها. لن تنجب سعاد أطفالاً تدرك سلفًا أنهم سيبقون بلا تعليم، بلا ضمان صحي، بلا جوازات سفر، وبلا وظائف. أطفال بلا وطن!

أرض تلفظ، وأرض تضم، وطن يحنو على أهله ووطن يطردهم. جملة كتبتها أسفل شهادتها بعد تخرجها: أعود إلى وطن ليس بوطن.

بعد أن اعتذرت الدكتورة سعاد عن حضور العرس، اتفقت زهرة ولولوة ومنيرة أن يتسوقن سويًا لشراء فساتين السهرة. كن يحببن القيام بهذه المشاوير حيث يتفنن في تجربة الفساتين والبدلات وهن يسخرن من أعمارهن وأوزانهن وتجاعيدهن وشيبهن. كانت مطالب لولوة أصعب من مطالب الأخريات، كونها محجبة وتحتاج لفستان سهرة محتشم، فاقترحت عليها زهرة أن يذهبن لمحل العثمان وهو من أقدم وأعرق محلات الكويت. في الطابق السفلي من مجمع مريم التجاري، في المحل الفسيح بجوّه العابق بالفخامة، غرقن بين الألوان والموديلات للبدلات والفساتين المختلفة. هنا طويل وهناك قصير، هنا ملابس العمل والنهار وهناك فساتين السهرة. نظرت منيرة إلى المعروضات فخالتها زهرة سيغمى عليها، وهي تلتقط قطعة من الملابس وتعانقها.

نبهتها:

- الأسعار هنا ليست كما في المجمعات. انتبهي إلى السعر قبل أن تتسرعي.

ردّت منيرة بكلّ تلقائية:

- لا يهمني. انظري. انظري إلى هذا الفستان. إيلي صعب. يا الله. أدفع نصف عمري وأقتني قطعة لإيلي صعب!

انتفضت لولوة:

- كفاك سخفًا يا منورة. هل تعرفين كم سعر هذا الفستان؟ انظري إلى البطاقة المعلقة به.

ردّت منيرة بسعادة:

- لم أكن أعلم أن أزياءه متوفرة في الكويت. لطالما حلمت باقتناء قطعة من مجموعته. دعوني على الأقل أقيسه... «عن خاطري»!

دخلت غرفة التبديل وخرجت. بدت منيرة كأميرة خارجة من حكاية مصورة للأطفال. جمال الفستان واخضراره انعكس على لون عينيها فشعّتا به.

بينما صرخت لولوة إعجابًا بجمال الفستان على منيرة، رمت زهرة صديقتها بنظرة مختلفة، تلعثمت ولم تستطع التغلب على نفسها ولا إطراء صديقتها. اقتربت منها ورفعت البطاقة وقرأت:

- 1985 دينارًا كويتيًا.

تغير لون وجه منيرة وانتفضت مذعورة.

فأكملت زهرة:

- منورة. هل تعرفين أن بهذا المبلغ تستطيعين أن تجري عملية شدّ الوجه، التي طالما حلمت بها؟

وبغضب قاطعت لولوة:

- اسمعي يا منيرة. هل تعرفين تلك الجمعية الخيرية التي في نهاية الشارع في منطقتكم؟ هل تعلمين ماذا يمكن أن يفعله مبلغ كهذا لها؟ أفيقي من أحلامك وكفاك غرقًا بالماديات. إن كنت تملكين مبلغًا كهذا، اذهبي وتبرعي به لأطفال سوريا أو مصر أو اليمن.

نظرت منيرة إلى صديقتها بعتب:

- أنت تعرفين أني لا أقصر في هذه الأمور، والله وحده يعلم ما فعلت وما أعطيت.

قفزت زهرة للدفاع عن صديقتها:

هي فعلاً لا تقصر يا لولوة. اشترت نصف اللوحات في معرض أطفال سوريا، هذا عدا عن المبلغ الذي سلمته لي شخصيًا. لا تظلميها.

أردفت لولوة:

- أعرف، والله أعرف. قومي منورة شوي. هناك فساتين بأسعار أرخص. انظري حولك. هناك تشكيلات مختلفة.

أجابت منيرة بنزق:

- لا أريد أن أشتري أي فستان آخر إما إيلي أو لا شيء. فلنخرج من هنا.

- وماذا ستلبسين للعرس؟

- لا يهم... أمامنا أسبوعان للتفكير، وإن لم أجد، سأرتدي أحد فساتيني.

رن جرس هاتف زهرة. رقم غير معروف. صوت سيدة غاضبة:

- سيدة زهرة، أنت لا تعرفينني وأنا لا أعرفك. لكن أنا سورية وأعرف حال بلدي أكثر منك. أرجو أن تكفي عن جمع التبرعات للمسلحين الذين يحرقون سوريا.

صعقت زهرة لحديث المرأة:

- هل أنت جادة؟ من أنت؟ ثم، هل تعتقدين أننا نموّل مسلحين وأسلحة؟ نحن جمعنا مبلغًا صغيرًا من المال لنساعد أطفال اللاجئين، وليس لنا أي نية للدخول في السياسة.

- أنا سألت عنك، وأعرف توجهك لهذا أحذرك. أعتقد بأنك ضحية، فأنت لا تعرفين مع من تتعاملين، فهذه الجمعية التي تشتركين معها لجمع التبرعات، هي أكبر مموّل للأسلحة في سوريا، وترسل المجاهدين للقتال في صفوف القاعدة هناك. موضوع سوريا ليس لاجئين فقط، فهو أكبر من هذا بكثير. ما يحصل في سوريا هو هوة سوداء عميقة سيقع فيها الجميع ومن ضمنهم أنتم.

- اسمعي يا ست. أنا لا علاقة لي بأي سلاح...

قاطعتها:

- نياتك لا تبرر أفعالك. نحن السوريون أدرى بمصلحتنا، ولو بقينا تحت حكم بشار مئة سنة قادمة أفضل لنا من حكم الجهل والتخلف على أيدي المتلحفين بالدين... سكان الجحور.

12

ماء الزهر

المدينةُ العتيقةُ التي لا تشيخ. بيروت التي تُشبه عقدًا من الأحجار الملونة والتي لطالما استقبلت زوّارها بأناقتها وجمالها ودلالها، لم تكن هذه المرة بكامل بهائها. بدت وكأنها مريضة. كمن يحتاج طبيبًا يخفف عنها حدّة التوتر وقلق العابرين. الترقّب والقلقُ يخيمان على الأجواء؛ ولكأن سحابةً سوداء تطبقُ على قلب المدينة.

في طريقهن إلى الفندق، كان المشهد يتجلى أكثر أمام أعينهن. راحت لولوة تفكر بالمفارقة التي كُن بصددها، هنّ القادمات من عروس الخليج ليحضرن عرسًا آخر. تنظر إلى الطرقات المزروعة بالوجع وبأعداد هائلة من اللاجئين السوريين وهم يفترشون الشوارع وما تحت الجسور. تلكز صديقتيها دون أن تقول كلمة واحدة. ينظرن بعين واحدة، وأرواحهن تئن: أي قلب لا يهزه جوع طفل؟ أو اصفرارُ شيخ؟ أو صرخة أمّ سقط عنها صبرها فبكت!

شعور العجز الذي اقتحمهن ترك مرارته في أفواههنّ، فصمتن أمام هذه البشاعة التي صنعها البشر! وجوه الأمهات اللاجئات وهن يحتضنَّ أولادهن، استحضرت معها وجه حسيبة في عين زهرة، عندما ركضت إليها بينما كانت تهمّ بركوب السيارة للذهاب إلى المطار استوقفتها بصوت منكسر:

- خلاص نسيتيني يا ست الستات؟

ضمت زهرة المرأة المرعوبة التي بدت شاحبةً ومسحت على رأسها:

- لا والله لم أنسك يا حسيبة. أنا مسافرة كم يوم بس، وعندما أرجع سأحل مشكلتك. هذا وعد مني.

رغم كلّ التحذيرات التي تم توجيهها من قبل وزارة الخارجية الكويتية لرعاياها الكويتيين، بعدم السفر الى لبنان، جئنَ، كما فعل معظم المدعوين إلى العرس. ها هنَّ الآنَ في بيروت التي زرنها مرات ومرات في السابق، لكن طعم هذه الرحلة مختلف عما مضى. هذه المرة هن، بلا مسؤوليات، بلا أولاد، بلا واجبات. والأهم من هذا كله أنهن بلا أزواج.

«يا ليت سعاد كانت معنا، تحتاج لإجازة هذه المسكينة». جملة قالتها لولوة، ذكرت زهرة بحديثها مع سعاد قبيل مغادرتهن إلى لبنان. اتصلت تسألها إن كانت تحتاج شيئًا من لبنان. فشكرتها قائلة: إنها لا تريد سوى قنينة من الماء زهر اللبناني الأصلي. وبعفوية سألتها زهرة:

- أنت لا تسأليني عن ابن عمي عبد الرحمن مؤخرًا؟

ضحكت سعاد بسخريةٍ:

- لا أحتاج. فهو يحكي لي أخباره كلها... أولاً بأول.

رغم صدمتها، لم تكن زهرة بحاجة لأي شرح.

نظرت زهرة إلى عدد حقائب منيرة، فيما كان حامل الحقائب يدخلها إلى الفندق وتساءلت ضاحكة:

- أريد أن أفهم شيئًا واحدًا بس. سفرتنا كلها لا تتعدى الأسبوع. هل تحتاجين إلى كل هذه الأغراض يا منورة؟

منيرة:

- لا فرق في ذلك يا زهرتي، لن يتغيّر في منورة شيء فأنت تعرفينني، أنا لا أستطيع العيش بعيدًا عن ثيابي وإكسسواراتي ومكياجي. ثم يا بايخة، أنا لم أقرّر بعد أي الفساتين سأرتدي للعرس ولا أي حذاء، لهذا أتيت بها كلها وسأحدّد خياري هنا... معكنّ.

كانت منيرة تتقن الاهتمام بأدق التفاصيل، بجسدها، شعرها، مكياجها، أزيائها، أحذيتها. بل إنها لم تكن مستعدة للتنازل عن أدنى تفصيلة. كان حلمها أن تجري عملية شدّ لوجهها عند أحد أشهر أطباء التجميل في بيروت، لكنها لم تستطع إقناع زوجها بالموضوع، فاتجهت إلى تغطية تجاعيدها بإبر البوتوكس التي تشلّ العضلات وتمحو آثار السنين، والفيلرز التي تنفخ الشفاه والخدود.

في فندق الريفيرا المواجه للبحر، حجزت الصديقتان غرفتين، وحجزت زهرة جناحًا صغيرًا يحتوي على صالة ملحقة بغرفة النوم كي تسهل عليهن مهمة الاجتماعات والسهرات التي تعيدهن لأيامٍ خلت.

قبل فتح حقائبهن، وبحركة لا شعورية اتجهت منيرة ولولوة نحو جناح زهرة لترتيب برنامجهن. شغلت زهرة جهاز التلفزيون. نشرة الأخبار. راحت تتابع، الأخبار تضج بالتصريحات من كلّ حدبٍ وصوبٍ وكلٌّ جهة تخوّن الأخرى. الأحزاب اللبنانية بدت جميعها مستنفرة، راياتٌ تُرفَعُ وآياتٌ تتلى وعالم يضج بالضدّ من كلّ الجهات. على محطة أخرى، تقرير عن الهلع في نفوس اللبنانيين. قلوب الناس ينذرُها شؤمٌ مما يحصل عند الجارة القريبة. الشوارعُ ما عادت هي الأخرى تشتهي

الوافدين، فأغلقت المحلات أبوابها بعد أن فرغت أو كادت من الزبائن. شعور بالرعب من المجهول القادم وماذا تخبئ الأيام للبلد بأكمله. يقول المذيع: إن أعداد النازحين السوريين تزداد على مدار الساعة، ولا طريق أو ملجأً لهم سوى الشوارع المترامية الأطراف. الكثير من اللبنانيين احتووا بعض العوائل السورية لكن من سيحتوي أكثر من مليون لاجئ؟ استعادت كلمات السيدة السورية التي اتصلت بها منذ أيام. تساءلت أين أموال التبرعات التي تجمع يوميًّا؟ أين المليارات التي تبرعت بها الدول؟ أين تبرعات الجمعيات الخيرية؟

أقفلت الجهاز بعد أن سمعت منيرة تئن:

- يا ربي إلى متى؟

فردت عليها لولوة:

- الله ينصرهم، ويعيدهم إلى بلدهم.

أمسكت زهرة بسماعة التلفون وسألت:

- سأطلب فنجان قهوة، أنتما أيضا؟

وافقت منيرة واعتذرت لولوة قاصدة غرفتها للصلاة. بوداعة، قالت لها زهرة:

- ادعي لنا يا حجة.

فردت لولوة بحبّ:

- يحميكنّ ربي ويهديكنّ، ويخلي لكنّ أزواجكنّ والأولاد.

تحب زهرة دعاء لولوة وتؤمن أنه سيتحقق. تداعبها وتسخر

منها علنًا، لكن كلمات صديقتها تريحها في سرّها وتهدئ من روعها. تجدها صدرًا يحميها وقلبًا كبيرًا يحتويها.

لكن منيرة كان لها رأيٌ آخر:

- أولادنا نعم. أزواجنا، لا.

لم تحتمل لولوة تعليق منيرة، فقالت: إن زوجها عبد الله، رجلٌ محترمٌ وفاضل. وأضافت:

- أي زوج سيظل ينضح بالحياة بعد عشرين سنة زواج يا صديقتي؟ كلنا في الهوا سوا. لا نقول إلّا الحمد لله. الله لا يغيّر علينا.

فردّت منيرة مشاكسة:

- لا لا. علّه يغيّر علينا ويضخ بعض الحياة في أرواحنا. خلص.. لا تكدرونا بسيرتهم. نحن الآن في بيروت وبدونهم. دعونا نستمتع بإجازتنا القصيرة هنا. قليل من الفرح نحتاجه يا بنات!

لولوة، ضاحكة:

- بنات؟ كلّ هذا وبنات؟ كلّ هذه السنين، والتجاعيد والشيب؟ وتقولين بنات؟

منيرة:

- تكلمي عن نفسك يا حبيبتي. أنا لا تجاعيد لدي ولا شعر أبيض. أنا ما زلت صبية على قول اللبنانيين.

فردت زهرة ضاحكة:

- الفضل لتلك الإبر التي تغرسينها في وجهك يا ملعونة.

ثم قامت لتفتح الباب وقد أعلنت رائحة القهوة عن قدوم نادل خدمة الغرف.

أفاقت زهرة باكرًا قبل صديقاتها. وقفت إلى النافذة تتأمل تلك الحسناء الغاوية الناثرة شعرها الغجري عند البحر. كانت تحب بيروت، وتحب المشي في شوارعها. المشي شغف تمارسه في كلّ المدن التي تزورها، فالمشي في الكويت شبه مستحيل بسبب الجو الحارق الذي يمنع تلك المتعة البسيطة.

ارتدت بنطلونًا قطنيًّا رماديَّ اللون وتي شيرت بيضاء خفيفة وحذاءها الرياضي. رفعت شعرها على هيئة ذيل الفَرس، تحسبًا لحرارة الجو، عدلت نبضها على نبض مدينتها المفضلة، ونزلت متجهة نحو الكورنيش المقابل للفندق. راحت تشبع نظرها بزرقة البحر وتخزن في أنفها رائحته. انتعشت روحها ورئتاها تمتلئان بأنفاس الحرية. وكمسحورٍ بلذة المكان واكتشافه، راحت تمشي وتمشي، تتأمل الناس، تحيك حكايات لم تحصل لهم، تعاتبهم في سرّها لسعادتهم وتعاستها. تنظر إلى البحر، تحلم بكوخ صغير على طرفه تعيش فيه، تحدث نفسها: «إن عشت هنا، ربما سأنجب طفلاً جديدًا، وربما أسميه «بحر». لماذا لا يسمون أولادهم بحرًا؟

عند التقاء شارع الكورنيش بـ «عين المريسة»، أفاقت من حلمها. دخلت شارعًا فرعيًّا، ساقها إلى حارات ضيقة. هي التي تعشق الحارات الضيقة والبيوت القديمة والأرواح التي سكنتها. انفرجت أساريرها، متناسية حرارة الجوّ ورطوبته، غير آبهة بلباسها الذي التصق بجسدها بسبب الرطوبة. ارتسمت على سحنتها ابتسامة

عفوية بريئة وهي تتسلى بالفرجة على كبار السن وأصحاب الدكاكين الصغيرة وعمال الصباح. أمام دكان صغير وجدت مسنًّا يجلس على كرسي من القش، يعتمر طربوشًا فيما ملابسه إفرنجية بالكامل. وراء عدستي نظارته الصغيرتين، ثمّة عينان منطفئتان تنظران في الفضاء، وهو يدخن أرجيلته بصمت. نظرت إلى داخل المحل، لم تتبيّن ماهيته. انحنت نحو العجوز:

- يسعد صباحك يا عم. ماذا تبيع هنا؟

- وصباحك أسعد يا بنتي. أبيع كلّ شيء. ماذا تريدين أن تشتري؟ أبيع الذكريات، التاريخ، أبيع الابتسامات والأفراح... حتى الأحزان والدموع أبيعها.

اضطربت ولم تفهم شيئًا. بان الغموض على وجهها، فعاد العم يشرح لها:

- يا ابنتي أنا أبيع الأنتيكا هنا. ليست الأنتيكات الغالية التي تُزين بها البيوت والقصور. لا. انا أبيع ذكريات الناس. أعمارهم، أفراحهم وأتراحهم، ملابسهم، صورهم، صحونهم وكؤوسهم. أبيع حيواتهم.

فهمت أنه محل (بالة) للأغراض المستعملة. حيّته وتركته ودخان أرجيلته، وراحت تهجس بالحيوات المعروضة للبيع. ماذا يمكن أن تبيع من حياتها؟ ذكرياتها البشعة؟ وجعها؟ دموعها؟ من سيشتري كلّ هذا؟

أكملت مشوارها. ثمّة رائحة زكية تقتحمها. كانت الروائح تجتذبها من كلّ صوب، لكن رائحة الخبز الساخن أيقظت جوعها، فتذكرت أنها لم تفطر قبل مغادرتها الفندق. وكقطة جائعة، راحت

تتبع رائحة الخبز المنبعثة من مكان قريب، منصاعة لأنفها الذي لا يخيّبها أبدًا بحساسيته العالية أمام الروائح.

عند زاوية حارة ضيقة توقفت أمام دكان صغير يتوسطه (صاج)، تجلس خلفه سيدة مسنّة، ذات وجه نوراني، تكلّل رأسها طرحة تتسلّل منها خصلات شعرها الأبيض. مأخوذةً بخفة يديها وجمال ما ترى، راحت زهرة تتابعها وهي تفرد العجين الطري فوق الصاج وتمسحه بالزيت والزعتر كما لو أنها ترسم لوحة اعتادت على رسمها كلّ هذه السنين. أنهت السيدة خبز منقوشة، فرفعتها عن الصاج ولفت نصفها الأسفل بورقة بيضاء، وقدمتها لزهرة مبتسمة. همّت زهرة بفتح حقيبتها لتدفع ثمن المنقوشة، فرفعت السيدة يدها معاتبة:

- يا عيب الشوم، هيدي ضيافة.

ردّت زهرة بخجل:

- تسلم إيدك. لكن كيف عرفت أني ضيفة؟

فقالت السيدة:

- اللبناني يا حلوة لا يقف يتفرج كيف تصنع المنقوشة؟

ابتسمت زهرة ورمتها بقبلة هوائية شاكرة فضلها، وراحت تقضم منقوشتها مكملة مشوارها اللذيذ، وهي تفكر بهذي الأرواح النقية التي لا يمكن لاحد أن يغتالها أو يحاول تشويهها. إنها بيروت التي تجمع كلّ شيء تحت عباءتها.

«الله أكبر» نداء وصلها من مسجد قريب. رفعت رأسها تبحث عن مصدره فوجدت نفسها أمام كنيسة صغيرة. كان أكثر ما يطربها

في بيروت هو سماع الأذان ممتزجًا مع قرع أجراس الكنيسة. همست: «ليتهم يقرعون الجرس الآن». استدركت.. «الله أكبر.. أذان الظهر... يا إلهي، كيف أنستني بيروت الوقت»؟

في طريق عودتها، رن جرس الرسائل القصيرة في هاتفها المحمول. «خالتي زهرة، أحبك أحبك أحبك. مشكووووورة. لقد نجحت خطتك». غلبتها دموعها.

عند عودتها إلى الفندق، وجدت صديقتيها بملابس النوم. أدارت التلفزيون في غرفتها، فانساب صوت فيروز «بعدك على بالي يا قمر الحلوين...»

- قوموا... أذّن الظهر. أنتم جايين بيروت لتناموا؟ فلنخرج إلى الحرية... إلى الحياة!

قامت لولوة وقد التصق حاجباها في منتصف وجهها، تفجّر الخبر الذي وصلها قبل قليل:

- سعاد اتصلت قبل شوي. ستتزوج

ردّت زهرة ببهجة:

- شنو؟ منو؟

- هو ما غيره، ولد عمّك عبد الرحمن. لكن الخبلة وافقت أن تتزوجه مسيارًا.

ترددت زهرة قليلاً ثم قالت:

- تدرين شلون يا لولوة.. هذه البنت صبرت طويلاً. دعوها تجتمع بمن تحب بعد كلّ هذه السنين. والله حرام.

انتفضت لولوة رافضة:

- هذا ليس زواجًا يا هانم. هذا زنًا مقنّن. هذه فتاوى يضحكون بها على الناس وعلى أنفسهم لتجيز لهم ما حرّم الله.

تدخلت منيرة وهي تقاوم استفزاز لولوة في هذا الوقت المبكر من النهار:

- مسيار ، معيار.. مو مهم. خلوها تستانس.. ما دام هناك من أفتى أنه حلال، يعني حلال. صكوا الموضوع.

يئست لولوة، فراحت تتمتم وهي تغادر الغرفة:

- «غريب الإنسان، يفصل الكذبة التي يحتاجها، وقتما يحتاجها، ثم يصدقها ويدافع عنها بشراسة، ناسيا انها كذبة هو اخترعها.

بعد الظهر، انضمت لهن غنيمة. التي صرن ينادينها (أم العروس) منذ أن وصلن بيروت. بمزاح به بعض الجدية قالت لها لولوة:

- أنتم ناوين تخلصّوا الكويت منا؟ ألا ترون مقدار الخطر في بيروت، لتدعونا إلى عرس في هذه الظروف؟

ابتسمت أم العروس مربتة على كتف صديقتها وقالت:

- يا حبيبتي، هل تصدقين أن من بين كلّ المدعوين اعتذر أربعة فقط؟ لا أحد بات يأخذ التحذيرات على محمل الجدّ. اللبنانيون عاشوا تحت خطر الحرب الأهلية لمدة 15 عامًا وهم يحتفلون ويسهرون ويتزوجون ويقيمون الأفراح. لا شيء يوقفهم. هذه حلاوتهم. لا أحد يعرف أن يعيش كما يعيش اللبنانيون.

- لكننا لسنا لبنانيين، وتبين الصج، أنا خايفة.

- تخافين ممَّ يا لولو؟ ها أنت ترين الأوضاع هادئة والحمد لله!

قررن تناسي التحذيرات، ووعدن أنفسهن ألا يقرأن صحيفة ولا يتابعن قناة إخبارية، أمضين يومًا رائعًا بين مناطق سوليدير والأشرفية وفردان، في الأسواق والمقاهي والمطاعم فيما كانت ضحكاتهن ترن في الأرجاء. رنّ هاتفها المحمول مرتين أثناء النهار، لم يكن أي منها من عادل. كان الاتصال من حسيبة، لم ترد، لم تشأ أن تعكّر صفو يومها بأخبار مزعجة، فوعدت نفسها أن تتصل بها عندما تعود إلى الفندق. كان يومًا استثنائيا ختمنه في مقهى الزجاج في الجميزة. ترانيم عود وأغاني أم كلثوم وعبد الحليم وعشاء ثقيل وضحكات بريئة. لم تعد زهرة إلى أرض الواقع إلّا عندما غنى المطرب أغنية نفذت كالسهم بين ضلوعها:

«خمرة الحب اسقينيها.. هم قلبي تنسنيه،

عيشة لا حب فيها.. جدول لا ماء فيه».

أخذت تردّد: «عيشة لا حب فيها»، فرددت صديقاتها من ورائها كالكورس: «جدول لا ماء فيه».

حين رجعن إلى الفندق، اتجهت كلّ منهن إلى غرفتها لتغيير ملابسهن وإزالة ما علق بهن من ماكياج وخواطر سنين وهموم. لم تكن زهرة جاهزة لاستقبال صديقتيها مع أنها تركت لهما الباب مواربًا. قامت وفتحت جهاز اللاب توب، لتتفحص صفحتها على الفيسبوك. تفقدته، لم يكن هناك. تنقلت بسرعة بين الرسائل القادمة، لتجد اسم بيل بينها. كانت رسالته فارغة إلّا من صورة بحر. إنه بحر بيروت وصخرة الروشة. أسفل الصورة، كان هناك ملاحظة بالخط الأحمر:

«أعرف أنك في بيروت. إن كان لديك أدنى استعداد، أخبريني وسأكون في أول طائرة».

تجمّدت أصابعها فوق لوحة المفاتيح. ارتدَّت إلى الخلف، وكأنها تحمي نفسها من مصيبة قادمة. كممت فمها بيديها وراحت تبحلق في شاشة الكومبيوتر. هل هذا الرجل حقيقي؟ ماذا سيفعل إن أتى إلى هنا؟ بل ماذا سأفعل أنا؟ يستقل طائرة من بلد إلى بلد من أجلي، بينما يطردني ذاك الآخر من حياته كلما سنحت له الفرصة. يحس بألمي رجل غريب، في حين لا يشعر بوجودي من كرَّست حياتي له. ماذا سأفعل؟

ظلت الأسئلة تتدفق في ذهنها وهي تبتلع غصتها، وحرقتها لإهدار كرامتها وفضحها لضعفها بهذه الطريقة. أغمضت عينيها لتفرّ دموع حارة لم تستطع ايقافها. «أين خططك ومشاريعك؟» أتاها صوتٌ شامتٌ من داخلها. «ألم تخططي لهذا المشروع خطوة خطوة؟ ألم تقرري بحزم ونية مسبقة أنك ستفعلينها؟ ألم تتخذي قرارك منذ مدة؟ ما لَك ترتجفين خوفًا ورعبًا الآن؟».

دخلت منيرة:

- يا ساتر يا رب؟ ما الذي قلب حالك من حال إلى حال في غضون دقائق؟ ما بك يا زهرة. قولي لي بالله عليك؟

كان جسد زهرة يرتجف وهو يطفح بألم الوحدة والضياع. ضمتها منيرة إلى صدرها وهي تكاد تبكي خوفًا عليها. مسحت زهرة دموعها قائلة بصوت متهدج:

- منيرة. أنا في ورطة. لا أعرف كيف أشرحها لك. لكن لا أعرف كيف أخرج منها أيضًا.

وبحنان أمٍّ أجابتها منيرة:

- احكي لي يا حبيبتي. ما الأمر؟

لم تعرف زهرة كيف تشرح لصديقتها قرفها من حياتها ولا كيف تفسرٍ لها كيف أنها اختارت عادلاً بكامل حريتها منذ عشرين سنة، وأنها أعجبت بصفاته وخصاله عندما التقته، وأن تلك الصفات نفسها هي التي تكرهه بسببها الآن. كلّ صفاته. كبرياؤه، ثقته المفرطة بنفسه، دمه البارد، ملامحه، أحلامه، طموحه. تكرهها كلها حتى رائحته. كيف تشرح لها أنها تحمّلت سخطه الدائم على الحياة في الكويت، وعلى الذين يعيشون فيها؟ تحملت طموحاته وتعلقه بالمناصب والمراكز، تحملت لهاثه وراء المال، تحملت تقديسه لكلّ ما هو أجنبي واحتقاره لكلّ ما هو عربي. وكانت لتتحمل أكثر، فقط لو كان لها أي موقع في قائمة اهتماماته. أي ترتيب في سجّل يومياته كان ليرضيها، أي رقم في حياته، رقمٌ يعود ليحسبه مع باقي الأرقام التي تهمّه .. رقمٌ فقط!.

التفتت لمنيرة:

نحن نعيش، أمام الناس، في فيلم من بطولتنا... وحالما نعود إلى بيتنا، يعود كلّ منا إلى زاويته الموحشة بانتظار فيلم الغد.

- يا زهرة يا حبيبتي. كلنا نمر بهذه المرحلة من عمرنا، نمل، نتعب، نحتاج إلى تغيير.

انتفضت عند سماعها كلمة تغيير وراحت تؤكّد عليها:

- آه هذه هي... تغيير. أنا بحاجة إلى تغيير جذري وأساسي وكلي. ليسً تغيير المكان أو الزمان، ولا مجرد تغيير للجو وبعدها أعود

لذات (الخنقة). أحتاج أن أغيّره هو... هو يا منيرة! أتفهمينني؟

- «إياك يا زهرة!»

كان حوار منيرة وزهرة صامتًا مقارنة بالصوت الذي فاجأهما، كان عاليًا وصاعقًا وآمرًا. تسمّرت زهرة بمكانها حين رأت لولوة واقفة بباب الغرفة وإصبعها مرفوع في الهواء.

- احذري. لا تنزلقي إلى هذه الهاوية. زهرة، انظري مليًّا إلى نفسك، إلى زوجك، إلى أولادك، إلى عائلتك. أنت إنسانة محظوظة، والكثيرون يحسدونك على ما أنت فيه. الإنسان لا يستطيع امتلاك كلّ شيء، وما تمتلكينه أنت لا يملك نصفه الكثيرون.

أغرقتها الكلمات. «كيف لي أن أشرح لـ لولوة العاقلة الرزينة المتدينة أني بحاجة إلى رجل. بحاجة إلى دفء ذراعين يضمانني، إلى قلب يحتويني؟ كيف أقول لها: إني أحتاج أن يلمسني رجل، أن يعيد لأرضي البور بعض الحياة؟» تساءلت كيف تتوسل قلب لولوة أن يحنو عليها وأن لا تعاقبها هي الأخرى؟

لم تستطع الإفصاح لصديقتيها عن قصة عادل وسبب كرهه للعرب. لم تشأ أن تذيع سرّه الذي حاول عمره كله أن يخفيه عن عيون الناس. لم تستطع أن تقول لصديقتيها: إن عادلاً كان من أمّ أجنبية صادقها أبوه عندما كان طالبًا في أميركا، وبعد ولادته بأشهر خطفه وأتى به إلى الكويت، وإن أمه حاولت على مدى سنوات استرداده؛ لكنها فشلت بسبب دهاء الأب وصلاته بأصحاب القرار في البلد. نشأ عادل مع إخوته لأبيه دون أن يعلم أصله وفصله، ودون أن يفهم سرّ اختلاف ملامحه وألوانه عن ملامح وألوان إخوته، إلى أن اعترفت له أخته يومًا بكامل القصة. واجه أباه لكنه لم يستطع الصمود خوفًا من خسارة

مركزه وماله وجنسيته، فحافظ عليها ظاهريًا وكتم حقده وكرهه داخليًا. «لكن لماذا ما زلت أحافظ على سرّه؟» تساءلت، «أنا نفسي لا أعرف».

- يا لولوة يا صديقتي. أنا لا أريد لا حساباً بنكيًا، ولا واجهة ملمعة أمام الناس، ولا حفلات ولا دعوات، ولا مجوهرات وأزياء. أريد الحب.

- كفاك سطحية يا زهرة! أنت تتكلمين كالمراهقات. لقد كبرنا على هذه المشاعر والعواطف. في أعمارنا، لا يستطيع المرء إلّا أن يقول... (يا الله حسن الخاتمة).

قفزت منيرة والشرر يتطاير من عينيها:

- ما هذا الهراء يا لولوة؟ أية خاتمة؟ وهل هذا منطق تتحدثين فيه؟ زهرة ما زالت «في عزّها». تحتاج أن تكون في حضن رجل. واحتياجاتها ليست عيبًا ولا حرامًا.

- أمامها إذًا أحد خيارين: إما أن تكتفي بما تملك مهما كان قليلاً وتعيش مثل أغلب النساء، راضية مرضية، أو تنفصل.

أغمضت زهرة عينيها محاولة الاختفاء من هذا المشهد، سمعت صوتها الداخلي يصرخ في جوفها: «أنفصل؟ وأين أذهب؟ أعود لعتمة بيت أهلي وقوانينهم وكآبتهم؟ أشرد في الشوارع، أم أستأجر شقة لوحدي؟ ربما أضع لافتة على بابها «مطلقة ومتاحة». دعوني بالله عليكما، لا أحتاج إلى حلولكما، ولا إلى نصائحكما. أعرف أنه من السهل عليكما أن تتفلسفا وتنصحا وتبديا الرأي لأنكما باختصار شديد لم تعيشا وضعي ولم تتألما ألمي. أنتما لم تمثّلا دور السعيدة الراضية المرضية لمدة عشرين عاماً. لم تستندا إلى حائط بارد عندما

لم تجدا كتفاً تستندان عليها، ولا احتضنتما الخواء عندما لم تجدا من يحتضنكما. ولم تنَاما لتصحيا ثم تعودان إلى النوم لا لسبب، إلّا لأن الحياة أحلى في الحلم. أليست السعادة حق لكلّ البشر؟

طلبت لولوة فنجان قهوة بيضاء لزهرة. قالت في لبنان يقولون: إنها (تروّق) الأعصاب. جلست بجانب صديقتها تمسح على رأسها وهي تقرأ آيات قرآنية علها تهدأ قليلاً. عندما شعرت بها تستكين، تركت فنجان القهوة البيضاء على الطاولة أمامها، ودعتها لشرب القليل منه ثم انسحبت بهدوء وهي تجرّ منيرة خلفها.

- فلنتركها لترتاح قليلاً!

فاحت رائحة ماء زهر في الغرفة، فشعرت زهرة بالهدوء. ارتمت على سريرها، عانقت مخدتها تائهة، غاضبة، مرتبكة وعلامات الاستفهام تتساقط مطراً حولها. دبّ الخدر في جسدها ورأسها حتى استسلمت له. صور مختلفة تتسارع على مخدتها كدبيب نمل. مشهد من ماضٍ بعيد اخترق حلمها. رأت وجهي سالم وسارة البريئين كما كانا قبلٍ سنين، بصوتيهما وضحكتيهما. سارة تضع رأسها على صدر أمها، بينما عانق سالم أمه بذراعيه الصغيرتين. راحت تهدهدهما وتغني لهما كما كانت تفعل في ذلك الوقت. تسرّب إلى قلبها إحساس بالرضا والهدوء، فاستسلمت لذاك الشعور الجميل الذي اشتاقته طويلاً وغفت.

13

عرق

«كوني في شارع الحمرا الساعة السابعة مساء عند مقهى (كوستا). بيل».

هذا كلّ ما وصلها كرسالة قصيرة على هاتفها المحمول في الصباح الباكر. لم تخبر أحدًا ولم تتخذ قرارًا. وجدت نفسها تتجهز لموعدها تلقائيًّا وكأن هناك قوة خارجية تسيّرها.

كانت ترتدي فستانها الأسود ذا الورود الحمراء الذي اشترته من (سوليدير) أثناء مشوار الأمس، أحبته لحظة ما رأته في المحل، كأنه فرح خارج من سواد الحزن قسرًا. انتعلت حذاءها الأسود ذا الكعب العالي. وحملت حقيبة يدها التي تحتفظ فيها بعطر الورد البلدي. في المصعد، نظرت إلى نفسها في المرآة مرة أخيرة، كانت تشبه المرأة في لوحة علوان بأحمرها وأسودها، أيهما سيكسب المعركة يا ترى؟ تمنت لو امتلكت وردة لتشبكها في شعرها. ضحكت للفكرة.

على ناصية الشارع لم تكن تقف وحدها. بدا لها وكأنهم كانوا جميعًا هناك: عادل، سارة، سالم، أمها، أبوها، وإخوتها. حتى حميد كان يقف أمامها وينظر إليها بعين ثاقبة. كان الخوف، الفرح، الخجل، العيب، السعادة، والإثارة، كلهم يتصارعون داخلها.

توقفت سيارة تاكسي أمامها بالضبط. وما إن ظهر بيل فيها، حتى اختفى كلّ من كان يقف معها. بانت ابتسامته التي أنستها كلّ هواجسها. كان يرتدي بدلة غامقة وقميصا أزرق بلون عينيه، رمى عليها سحره:

- اشتقت لرؤية هذا الجمال. كنت متأكدًا أنك ستكونين هنا، حتى عندما لم تردي على رسالتي.

- وما الذي يجعلك بهذه الثقة؟

لم يرد، صافحها بحميمية، وأبقى يدها في يده وسحبها خلفه.

- هل لي أن أعرف إلى أين نحن ذاهبان؟

- مفاجأة. لن أقول لك شيئًا حتى نصل هناك.

أعجبتها هذه الإثارة وكأنها تلعب لعبة جديدة: «كأنني شاهدت هذا المشهد في فيلم لفاتن حمامة، أو سعاد حسني. لم أعد أذكر»، أرادت أن تقول له، لكنه لن يعرف أبطال أفلامها العرب. سلمت نفسها لإرادته وراحت تتقمص الدور كما لو أنها البطلة.

طلب منها أن تغمض عينيها. أغلقتهما، قادها من يدها ومشيا. استخدمت حاستها الأهم لتتحسس طريقها، وهي تمنع نفسها من التلصص على الطريق. عبرا شارعًا رئيسيًا؛ روائح عوادم سيارات، قهوة ثم قمامة. بعد قليل دفعها بلطف لتنعطف فدخلا حارة فرعية، تغيّرت الرائحة، شاورما أو كباب، وعرق آدمي... مطعم بالتأكيد. بعد أمتار هبت عليها رائحة حلوة، زنبق أو ربما فل، لا بدّ أنهما يمران بجانب محل لبيع الورد، «ربما أجد عنده الوردة التي تمنيتها» همست في سرّها. أخيرًا، أدخلها مكانًا مغلقًا، داهمتها رائحة دخان وكحول.

طلبت أن تفتح عينيها، فرفض وظل يسحبها من يدها. سمعت أصوات موسيقى لاتينية جميلة، فراحت تتمايل ضاحكة وهي تمشي.

أخيرًا توقف. همس في أذنها: «اجلسي» وابتعد. توقفت الموسيقى لثوانٍ، ثم عادت لتعزف موسيقى قريبة إلى مسامعها. طلب منها فتح عينيها، فوجدت نفسها في مكان صغير حميم، يغطي أرضيته خشب الباركيه جدرانه قماش مخملي أحمر. ثريات كريستال بسيطة معلقة فوق الطاولات القليلة، وفسحة كبيرة في منتصف المكان أمام الفرقة الموسيقية. بدأت الموسيقى تصدح بألحان التانغو وتتسرب لمسامات جسدها. سمعت أحد الموسيقيين يقول عبر المكبر: هذه الرقصة مطلوبة خصيصا من أجل زهرة. سحبها بيل من يدها ليصل بها إلى منتصف فسحة الرقص.

باغتها الفرح بعد أن نسيت طعمه. وجدت نفسها بين ذراعيه دون أن تعي. تمنت لو يتوقف الوقت عند تلك اللحظة. ضم خصرها بيد وبالأخرى أمسك بيدها. همس في أذنها: «التانغو» يشعل الحميمية بين المحبين ويحرّر مشاعرهم، فتحرري! أحست بحرارة أنفاسه على مسام رقبتها فغشيتها قشعريرة عارمة. شدّها بعنف نحوه، والتصق بها. شعرت بأنهما صارا واحداً. سرت كهرباء جسده الغريب في كامل حواسها مرورًا بأدق تفاصيلها.

- أنا لا أعرف الخطوات.

- لست ملزمة. هذا سرّ التانغو. أي خطأ ترتكبينه، يصبح حركة جديدة من حركات الرقص. كما يقولون:

If you make a mistake, get all tangled up, just tango on

لكز قدمها بقدمه، فتحركت لاشعوريًا على وقع خطواته. خطوة

نحو الخلف، وأخرى يسارًا، وثالثة إلى الأمام. أدارها بخفّة، وبدأ يراقصها. تعثرت قليلاً ثم استسلمت لاحتراف يديه وهو يطير بها، ألبست قلبها حذاء التانغو... وتركته ينتشي!

كانت عواطفها بحالة غليان، أحست بالدم يحتقن في خدودها. ألغت كلّ التحفظات والممنوعات التي تربت عليها وتركته يحتويها. دار بها، رقص بها، حملها، ثناها، أمالها وحضنها. أغمضت عينيها وانفصلت عن صحوها ودنياها... وامتلأت بالفرح.

حين عادت إلى كرسيها كانت ترتجف وكان بيل يتصبب عرقًا وفرحًا. سألها ماذا تشربين؟ قالت: أنا لا أشرب لكنني أحس وكأنني ثملة وإن كنت لا أعرف ذاك الشعور. طلب قنينة نبيذ أحمر وبعض المازات وسحب كرسيه وجلس بجانبها.

تناول منديلاً وراح يمسح جبهته:

- هذا المكان يسمى (ميلونغا) أي المكان الذي ترقص فيه رقصة التانغو. وبعد تلك الرقصة أصبحت أنت «تانغيرا» وأنا «تانغيرو».

ضحكت من أعماق قلبها وهي تردّد الأسماء. ثم أكمل:

- هل تعلمين أن لرقصة التانغو جذورًا عربية؟ يقال إنها بدأت في الأندلس وفي إشبيلية بالذات، ثم انتقلت من خلال هجرات الأفارقة إلى اسبانيا ثم الغرب في أوائل القرن التاسع عشر. هل تعرفين عما تعبّر رقصة التانغو؟

- لا.. أنا فقط أحب خطواتها وحركاتها والموسيقى الرائعة التي تصاحبها. عندما أسمع أنغامها أشعر أني أطير رقصا.

نزع بيل سترته، فبان صدره العريض وعضلاته المفتولة، هز

قميصه بإصبعيه ليدخل بعض الهواء البارد في ثناياه، فغابت في تفاصيله. قال:

- يا وردتي الجميلة، التانغو تعبّر عن عدة مشاعر معجونة في رقصة. هي الحب، الرغبة، الشغف، الشك، الغيرة، ثم الخيانة والغضب.

ارتعش جسدها وهي تسمع كلمة الخيانة تخرج من فمه. مدّ يديه فاستقرتا فيهما يداها كحمامة تحتمي بعشها:

- زهرة. أنت امرأة ليست كأي امرأة.

احمرت وجنتاها ولم تقل شيئًا رفعت كأس الماء وقربته من شفتيها دون أن تشرب فتابع:

- لا أعتقد أني بحاجة لأشرح لك مشاعري نحوك. أنا فتنت بك.

سحب كأس الماء من يدها ووضعه على الطاولة وراح يحدّق بها. انفصلت عن ألمها ووحدتها وعزلتها ولم تعد ترى إلّا عينيه. أطلقت عصافير قلبها هاربة من قضبان صدئة لتسبح في سماء زرقاء. رفعت خصل شعرها المرتمي بفوضى على جبينها، وجمعتهم خلف أذنها، وهي تحاول أن تتحاشى نظراته الحادة التي تحبو فوق وجهها وتستقر على ثغرها.

وضع يده على كتفها وشدّها نحوه. فكرت؛ ثمّة لحظات يمرّ بها الإنسان لا تعود بعدها حياته كما كانت! تركت رأسها يرتاح على صدره واستكانت.

انتهت السهرة على حب، دعاها أن تكمل ما تبقى منها في فندقه. خافت. ثمة شعور يعتمل في داخلها أكثر من رغبتها في الخيانة

والانتقام. شعور جميل سلس ومريح. شعور لا تشوبه تلك الروح العدائية التي كانت تغشاها ولا أحاسيس الحقد والانتقام التي كانت تحفزها لتنفيذ مشروعها الأصلي. لم تشأ أن تشوه ما يختمر داخلها، فاعتذرت. أصرّ. فنجان قهوة فقط. أرجوك؟ ضعفت... فوافقت.

وصلا الفندق. أرادت أن تجلس في المقهى في الطابق الأرضي من الفندق. شدّها من يدها:

- هذا مكان كئيب. هناك بار جميل على سطح الفندق.

دخلا المصعد. وحالما أقفل الباب، دفعها إلى الزاوية والتصق بجسدها. ضغط زر الطابق الأخير ثم حالما تحرك المصعد ضغط زر الإيقاف. ارتج المصعد بهما، فهوى قلبها. أحاط خصرها بذراعيه، بقوة، وشدّها نحوه.

- خائفة؟

- لا من المصعد أن يهوي بنا... بل منك أن تهوي بي!

شدَّها أكثر. كلّ ما بها صار يرتجف. تتمنع وهي الراغبة به. دسَّت رأسها في صدره؛ محاولةً تجنُّب شفتيه الجريئتين. تنشقت رائحة غريبة.. رائحة لاتينية، مثيرة، دُهشت: هل للتانغو رائحة؟ أمسك بذقنها، ورفع رأسها نحو وجهه... مرر أصابعه بين خصلات شعرها ورفع غرتها وقبل جبينها. ذابت رغبة. هبط بشفتيه نحو خدّها، ثم رقبتها. ظل هناك طويلاً يعد نمش رقبتها بفمه، فيما يداه تحيطان جسدها بلطف خشن يمنعها من الإفلات. تتعرَّق، وكلّ ما بها يغلي، رفعت يديها وطوَّقت رأسه بحنان شبِق. يلثم شفتيها، أنفاسه تحرقها. يداه عادت لتمسحان خصرها وظهرها، تعصران جسدها بتلذذ. كلّ ذرة منها تستجيب، وكلّ ما فيها يطلب المزيد. خافت مما هو

آت، مررت يدها بخفة وضغطت زر الطابق الأخير مرة أخرى. تحرك المصعد. ما زالت تشعر بحرارتها ترتفع؛ تأوهت... تنهد هو، لم يُسكت لهاثهما إلّا صوت توقف المصعد في الطابق الأخير من الفندق.

- فلنذهب إلى غرفتي، أرجوك!

استجمعت كلّ ما فيها من قوة:

- لا! أرجوك، أنت لا تفهمني. صدِّقني... أريدك كما تريدني وربما أكثر. لكن ثمَّة أمر يخصني وحدي عليّ أن أتحرَّر منه قبل أن أغرق بك. لا تستعجلني!

- لا أريد منك شيئًا فقط أن تكوني بقربي. لماذا تحاربينني وتحاربين نفسك بهذه القسوة؟ الحياة أقصر من أن نتجاهل ملذاتها. امنحي نفسك حريتها... Let go!

- سأفعل في الوقت المناسب. أعدك.

سحبها من يدها مستكينًا وخرجا من المصعد إلى البار المفتوح.

14

ليليوم

- صباح الخير يا حلوين. صباح الخير يا بيروت، صباح الخير يا قهوة، صباح الخير يا لبنة ويا زيتون.

أخذت تتراقص في صالة الجناح كمراهقة استلمت للتو أول رسالة حب. خرجت إلى الشرفة:

- صباح الخير يا شمس. صباح الخير يا بحر. صباح الخير يا الله.

تبادلنا النظرات المستريبة. تساءلت منيرة ضاحكة:

- لا بدّ أن سهرتك عند أصدقاء أمك بالأمس كانت جميلة جدًا ليكون صباحك بهذا الحبور.

أجابت بسرورٍ واضحٍ:

- فعلاً كانت سهرة جميلة. صديقة أمي وبناتها كن في قمة الذوق، فقد دعونني إلى عشاء منزلي. وأي عشاء!

سألت لولوة:

- أو لم يكن من واجبك أن تدعينا معك يا ست؟ أنت تعرفين

هوسنا جميعًا بالأكل اللبناني... ماذا طبخوا لك؟

- من أين أبدأ؟ التبولة أو الفتوش، المحمرة أو الحمص البيروتي، المحاشي، ورق العنب والأرز بالشعيرية ولبن أمه.

منيرة مداعبة:

- شيطلع لبن أمه يا روح أمه؟

كانت حفظت وصفة (لبن أمه) من كتاب ألف باء الطبخ الذي اشترته من ضمن جهازها منذ عشرين سنة وكانت تستعين به كثيرًا عندما كانت (تحب... وتطبخ).

- هو لحم مطبوخ باللبن ويقدّم بجانبه الأرز بالشعيرية. يا له من طبق. أستغرب لم لا نجيد نحن الكويتيون طبخ اللبن كما يطبخه أهل الشام.

- لم نعتد عليه يا حبيبتي... فأنت تعرفين كلّ إنسان ابن بيئته.

تنهدت موافقة:

- صدقت...! كل إنسان ابن بيئته من جميع النواحي.

ثم أردفت:

- اليوم لن نرهق أنفسنا، يجب علينا أن نرتاح كي نستمتع في العرس الليلة. هل قررت أي فستان ستلبسين يا منورة؟

- لا لم أقرّر. لو تركتماني أشتري فستان إيلي صعب لما صعب الاختيار، لكن يلا. اشربا قهوتكما وتمرغا باللبنة والزيت والزعتر لأني بعد قليل سأقوم بعرض الأزياء لكما كي تساعداني في الاختيار.

في تمام الثامنة، استعدت زهرة ولولوة. لبست لولوة فستانًا أسود طويلاً بأكمام من الدانتيل، ولفت رأسها بحجاب من الدانتيل الأسود الموشى بالخرز اللامع، بينما ارتدت زهرة فستانًا أحمر برّاقًا عاري الذراعين، وقد رفعت شعرها في (شينيون) بسيط. جلستا في بهو الفندق تنتظران (الست) لتنهي تجهيزاتها، وعندما طال الانتظار طلبتا فنجانين من الشاي.

استرعى انتباهها رجل يقف عند طاولة الحجز، الكتفين ذاتهما والقميص الأزرق ذاته. ارتعدت فرائصها وكاد كوب الشاي يسقط من يدها، هل جنّ بيل ليحجز في فندقها. انتبهت لولوة لارتباك صديقتها، فسألتها ما بها. «مجرد مغص»، قالت. «هي ربما كثرة الأكل اللبناني الذي تناولته عند أصدقاء أمك بالأمس»، علقت لولوة. وافقتها وعادت تنظر باتجاهه. حين استدار لم يكن بيل، تنفست الصعداء دون أن تعترف لنفسها على الأقل بخيبة أمل طفيفة.

ظهرت منيرة عند باب المصعد، كعروس المولد. فستانها الملون. مكياجها الصارخ، شعرها المنفوش. ومجوهراتها (التقليدية) اللامعة. نظرت إلى صديقتيها بإعجاب قائلة: ما أحلاكما. يلا.. إلى الفرح. اتجهن إلى بوابة الخروج وزهرة ولولوة تحاولان منع أنفسهما من الضحك. قبل أن تصعد في السيارة، التفتت زهرة خلفها، وكأنها لتتأكد مرة أخيرة أن ذاك الرجل لم يكن بيل. طوال العرس، لم يفارقها ظله، وكأنه كان يجلس إلى جانبها.

عند مدخل القاعة الرئيسية، وقفت مجموعة فتيات يرتدين فساتين سوداء لاستقبال المدعوين وإرشادهم نحو موائدهم. دخلن. عند باب القاعة، وقف والدا العروسين يستقبلان ضيوفهما. حيّينهما وقبلن غنيمة متمنيات لليلى السعادة والتوفيق، ثم ولجن القاعة.

رائحة عطرية جميلة تنثر رذاذها في الأجواء. صالة عملاقة كسيت جدرانها بالقماش الأبيض الموشح بشرائط من اللون البنفسجي الفاتح، تشغلها طاولات مستديرة مغطاة بشراشف بيضاء منقوشة بورود بنفسجية صغيرة تتدلى منها أوراق خضراء. في منتصف كلّ طاولة، شمعدان كبير يحمل ست شمعات وتتوسطه باقة ورود بيضاء رائعة. حول الطاولات، صفت كراسٍ مغطاة بالأورجانزا البيضاء، وفي صدر القاعة ارتفعت منصة وضعت عليها (الكوشة)، كنبة بنفسجية مخملية كبيرة تربعت على جانبيها باقتان كبيرتان من زهور الليليوم الأبيض في حوضين عملاقين، وعلقت من خلفها لوحات بيضاء منقوشة بزخارف بنفسجية وخضراء ناعمة.

كان المدعوون من كلّ جنسية وصنف ولون. همست منيرة لصديقتيها:

- من الواضح أن أبا العروس لم دخر جدًا ولا مالاً من أجل تلميع صورته أمام المعازيم.

فردت لولوة موافقة:

- إن علاقات السيد حسين بأوساط التجارة والأعمال وحتى السياسة ظاهرة من نوعية ضيوفه. انظري حولك، رجال أعمال، وزراء، سفراء، وتجار من كل نوع.

خطرت فكرة خبيثة لمنيرة وهي تنظر إلى الحضور بإعجاب يشوبه بعض الحسد:

- لو أن لصًّا دخل العرس بمسدس ورفعه بوجوه المدعوين؟ أراهن أنه سيخرج بثروة تكفيه العمر بحاله، بل ربما تكفيه لعمرين.

أنبتها زهرة ضاحكة:

- أنت حتى الإجرام تفكرين به؟

تضاحكن بتواطؤ، فيما كانت الفتاة ذات الثوب الأسود تقودهن إلى طاولتهن. شاءت أم العروس أن يختلط مدعووها من أهل الكويت مع مدعويها من لبنان ومن الأجانب، فجعلت كلّ طاولة ملتقى لمختلف الجنسيات. وقف رجل وزوجته، لبنانيان، كانا يجلسان إلى طرف الطاولة وقاما بتحيتهما حين وصولهن، معرفين بنفسيهما. على الجانب الآخر، جلس اثنان آخران لم تكن جنسيتهما واضحة، بديا في أواخر عقدهما السادس وفي كامل أناقتهما. ما إن جلسن، حتى اقترب رجلان وجلسا بعد تحية المجموعة.

ازدحمت الصالة بالمدعوين وابتدأت الموسيقى الخفيفة. جالت زهرة بعينيها أرجاء المكان في محاولة منها لعقد مقارنة بين أفراح الكويت وأفراح بيروت. إنها المرة الأولى التي تحضر بها عرسًا خارج الكويت.. رغم أنه جوّ غريب عليها؛ لكنها تستمتع به. فمعظم أعراس الكويت. يكثُر فيها الملل والتكرار حتى لكأنك ترى الضيق والملل في عيون المعازيم. لا شيء يختلف «الروتين نفسه، الوجوه نفسها، الموسيقى نفسها. بل البنات نفسهن اللواتي يرقصن في كل عرس.. الاختلاف الوحيد يكمن في اختلاف أزياء السيدات ومجوهراتهن».

سئمت من رتابة الأعراس هناك حيث تصف الكراسي على جانبي الصالة في صفوف مستقيمة وكأنه ملعب كرة سلة، ويترك ممرّ ضيق للراقصات من البنات المدعوات. كلّ سيدة تصرف مبالغ كبيرة من المال على الفستان والمجوهرات والكوافير والمكياج، ثم تدخل لتجلس على كرسيها من ساعتين إلى أربع، حتى يحين وقت العشاء،

فتقوم لتأكل ثم تعود إلى منزلها». لهذا أصبحت تعتذر عن معظم الدعوات.

أما الجوّ هنا مختلف جدًا. الناس لا يتوقفون وكأنهم في حركة دائمة قيامًا وقعودًا، يسلمون على بعضهم البعض ويتحادثون ويتعارفون. مجموعة ترقص على الموسيقى الهادئة، ومجموعة أخرى تتحلق حول والد العروس متضاحكة. شباب وشابات من أصدقاء العروسين تجمّعوا في إحدى زوايا القاعة حيث رتب لهم مكانًا بطريقة أقل رسمية وأكثر حميمية. جوّ يشع بالفرح الحقيقي. لم تتأكد زهرة إن كانت سعادتها الداخلية تشع في المكان أم أن المكان يشع في داخلها، ففي جزء قصي وواضح من قلبها كانت تبتسم.

دارت الكؤوس ومعها الرؤوس وعلا صوت الموسيقى، إلى أن خفضت الأنوار إيذانًا بوصول العروس. وعلى صوت الفنان سليمان القصار وصرخة «ألف الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله محمد»، دخلت نجمة العرس متأبطة ذراع أبيها الذي كان يقاوم دموعه بكلّ ما أوتي من قوة، وهو يشدّ على يد ابنته وكأنه لا يريدها أن تفارقه. كانت العروس جميلة بفستانها الأبيض الرائع وطرحتها التي امتدت وراءها لأمتار. وعندما وصلت لمنتصف القاعة، ظهر عريسها فجأة ليستلمها من أبيها. قبَّل حماه، ثم رفع طرحة عروسه، طبع قبلة على خدّ عروسه، ثم سرق قبلة سريعة من شفاهها، وسحبها من يدها ومشى معها إلى حيث سيجلسان.

علقت منيرة: انظروا لسعادة أبي العروس. في أعراسنا (يا حظي)، حتى والد العروس يحرم من التمتع بليلة ابنته، فيقف هو في ديوانيته يسلّم على الرجال طوال الليل، وتجلس هي في كوشتها إلى أن يأتي عريسها ليأخذها. يصرف الألوف على فرحها وفستانها وزينتها..

لتظهر بهم لساعة واحدة ثم تخرج من حفلتها، ليستمتع بها المعازيم.

انتعش جوّ العرس وعلا صوت الموسيقى بدأ الرقص. راحت منيرة تتمايل وهي جالسة على كرسيها، بينما صديقتاها تصفقان للراقصين والراقصات بفرح. فجأة لكزتها لولوة:

- أليس هذا فستان إيلي صعب الذي كنت تريدين شراءه؟

كانت شابة جميلة ذات قوام رائع تتبختر به. تعكر مزاج منيرة وتسلّل الحسد الى قلبها.

- ها هم أولاد المليونيرية. يشترون الفستان بالآلاف، يلبسونه مرة ثم يرمونه بالخزانة. لو كنت أنا من اشتريته، لكنت عشت به ليلاً نهارًا ونمت معه في فراشي. هذا ليس فستانًا، إنه تحفة فنية.

ردت لولوة بعقلانيتها المعهودة:

- الله يهنيهم... لا تحسديهم يا منيرة. لكلّ منا ما كسب.

- ما قلت شي... الله يهنيهم.. ويرزقنا!

قطع الرجل الجالس على طاولتهم حوارهما بلطف. نظر إلى منيرة مباشرة وسألها:

- هل تودين الرقص؟

كانت مفاجأة لم تتوقعها أي منهن. تبادلن النظرات وقد علقت الحروف على أطراف شفاههن. التفتت منيرة إلى زهرة ورمتها بنظرة شامتة، بينما تحاشت النظر الى لولوة. أومأت قبولاً، ثم قامت تسحب فستانها وترتب خصل شعرها في طريقها الى حلبة الرقص المليئة بصبايا وشباب بعمر أولادها. لم تكترث، رقصت كما لم ترقص يومًا.

جن جنون لولوة وهي ترى صديقتها تراقص غريبًا وراحت ذراعيها تتطاير في الهواء وهي تقول:

- ماذا لو رآها أحد أقربائها أو معارفها وهي ترقص مع هذا الرجل؟ هذه المجنونة لم يبق فيها لا عقل ولا خجل.

استجمعت زهرة نفسها محاولة أن تخفي ما شعرت به في تلك اللحظة، وقالت:

- استهدي بالرحمن يا لولوة، ما هذه إلاّ خربشات بريئة. منيرة تمرح فقط. ثم أن الرجل أحرجها.

- بلا إحراج بلا بطيخ، هذه مهزلة.

- يا حبيبتي، عند اللبنانيين هذه الحركات تعتبر لباقة واهتمام بالضيف، لا تحمّليها أكثر مما تحتمل. هي رقصة لا راحت ولا جت.

ثم خرجت منها عبارة رغمًا عنها:

- لكن لماذا اختار منيرة تحديداً؟

دقائق، عادت منيرة من بعدها إلى الطاولة منهكة متعرقة. نفضت غرتها بهزة من رأسها ثم سحبت محرمة وجففت عرقها بأخف طريقة ممكنة بحيث لا تفسد مكياجها. جلست وجلس زميل الرقص في الجهة المقابلة بعد أن شكرها. مالت لولوة نحوها هامسة والدم يكاد يفور من عروقها:

- هل جننت؟ بعتيها خلاااص؟

تجاهلت منيرة كلام صديقتها. ابتسمت، أمسكت بكأس

العصير الموضوع أمامها، شربت منه ما استطاعت علّها تطفئ لهيبًا اشتعل فيها بعد طول خمود.

لكزتها زهرة مؤنبة، فردت منيرة ببساطة:

- لا أعرف أين قرأتها يومًا. لكني بت أؤمن بها جدًا: «نحتاج إلى أن نعوِّد أنفسنا على التجاهل أحيانًا. تجاهل أحداث، تجاهل أشخاص، تجاهل أفعال، تجاهل أقوال، فليس كل أمر يستحق عنايتنا»!

15

زعتر

المسافة قصيرة بين صالة (البييل) مكان حفل العرس وبين فندقهم. شارع بحري واحد يمتد على طول خط مستقيم. الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل، كن قد شعرن بالتعب فاعتذرن لصديقتهن عن مغادرة العرس قبل وجبة الإفطار التي كان من المزمع تقديمها. تندرت لولوة؛ «عشاء وإفطار في عرس.. تبًّا للموضة، هكذا يضمن أهل العروسين اهتمامًا وحديثًا متزايدًا عن العرس في الكويت!»

وصلت سيارتهن الفندق. نزلت لولوة ومنيرة وتعثرت زهرة بفستانها، فتأخرت في النزول. صديقتاها دخلتا الفندق قبلها. رفعت فستانها الطويل متقدمة بحذر، لكنها عادت وتوقفت عند أول درجات المدخل بعد أن لمحت كومة آدمية صغيرة متكومة على بلاط الرصيف. تجمدت. نظرت إلى بواب الفندق، فأجابها دون أن يسمع سؤالها:

- هو طفل سوري متشرد ممن يجولون شوارع بيروت بحثًا عن اللقمة.

- وماذا يفعل هنا؟

- ينام. لا بيت له ولا ملجأ. يأتينا هنا بعد دوامه في بيع الورد.

نهرِّب له بعض الطعام من مطعم الفندق. وينتفع من صدقات نزلاء الفندق.

اقتربت زهرة من الطفل. كان يغطّ في نوم عميق. وجهه البريء ملطخ ببقايا زعتر. بجانبه سلة فارغة وبقايا ورود. انحنت فوقه. فاحت رائحته: عرق، وسخ، براءة، عذاب، قهر، غربة وورد. مدت يدها ومسحت على شعره.

فتح عينيه مذعورًا:

- جت الشرطة؟

- لا لا يا حبيبي. ما في شرطة. لا تخف. ماذا تفعل هنا؟

فجأة ظهرت لولوة أمام باب الفندق من جديد والقلق في عينيها:

- أين أنت؟؟

ثم ما أن رأت الطفل، حتى رفعت يديها في الهواء وهزت رأسها مستسلمة:

- أنت ما تبطلين من هالسوالف؟؟ صج ما عندك سالفة. تصبحين على خير.

اعتدل الصغير في جلسته، فالتمعت في الظلام عينان خضراوان بريئتان غلبهما النعاس. وجه طفولي، بشرة بيضاء لوحتها الشمس والقذارة. شعر كثيف ملبد بالوسخ، أنف دقيق وفم يفرج عن أسنان بين مكسورة ومنخورة، أجابها:

- كنت نائمًا. وأنت صحيتيني!

- آسفة يا بني. أين أهلك؟ أين أمك؟

أجاب كمن حفظ الإجابة:

- أبي في سوريا؛ يحارب. أمي مع إخوتي في طرابلس.

- وماذا تفعل أنت هنا؟

- أشتغل.

ابتسمت رغمًا عنها. لملمت فستانها الطويل، جمعته تحتها وجلست بجانبه:

- تشتغل بماذا؟

- أبيع الورد. أجمع المال وأروح بها لأمي حتى تطعم إخوتي. أنا الكبير، يعني رب الأسرة في غياب أبي. هيك أمي قالت.

تحشرج صوتها. لم يكن رب الأسرة هذا يتعدى التاسعة من عمره. شيء ما يفتح أقنية ذاكرتها على أمور كثيرة. صوته، نبرته، لهجته. وكأنه خارج من مسلسل باب الحارة:

- ولماذا أنت في بيروت وأمك في طرابلس؟

- أنا آتي إلى بيروت يوم الخميس، أجمع ما أقدر عليه، وأعود يوم الأحد بالغلة.

شعرت بالرطوبة وإحساس غريب يتسربان إلى جسدها، رفعت شعرها الذي تركته ينسدل على كتفيها وهي عائدة من العرس، ولمته على هيئة ذيل الفَرس بربطتها التي تحتفظ بها دائمًا في حقيبتها ثم تدحرجت أسئلتها كلها معًا:

- كيف تعيش هنا؟ أين تنام؟ كيف تأكل؟ أين تستحم؟

رفع يديه الصغيرتين باتجاه السماء، وأجاب بنبرة الكبير العارف:

- كله يتدبر. ولاد الحلال كتار.

ثم أشار إلى الرصيف تحته:

- هذه غرفة نومي، والكرتونة فراشي، والبحر حمامي.

- ما اسمك يا ماما؟

سألها بقلق قبل أن يجيب:

- أنت من أين؟

- أنا من الكويت.

بانت ابتسامة سريعة أضاءت وجهه رغم كلّ الأوساخ:

- خذيني معك إلى الكويت. لم يعد عندي بلد. خذيني والله أشتغل عندك مثل (الحمار) ولن أتعبك، ولن أضايقك. بس تعطيني معاش لأبعثه لأمي.

«لم يعد عندي بلد» خنقتها العبارة. «كم عربي لم يعد عنده بلد. كم عربي هجر وشرد وجاع ومات على أمل أن يموت في بلد. كم عربي ارتحل وهرب للاختباء من الموت وهو يظن أن الحرب ستنتهي قريبًا، لكن الموت لحق به في غربته قبل أن تنتهي حربه؟» عذبتها الأسئلة:

- لم تقل لي ما اسمك يا بني؟

- اسمي علي.

وبدون شعور، هربت الكلمات من فمها:

- تعرف يا علي، كان ممكن أن يكون عندي ولد بعمرك بالضبط. وكنت سأسميه أحمد.

بس راح.

- وين راح؟

توقفت عن الكلام حينما شعرت بدموعها تتسلل من تحت جفنيها. قامت واعتدلت بوقفتها، قام وراءها.

غريبة هي الذاكرة، تتسلّل إلينا من ثقوب النسيان، نحاول صدّها، نقفل الأبواب في وجهها، لكن لا بدّ لها أن تمر. كم نحنُ مملوؤون بالهشاشة في دواخلنا، لحتى تقهرنا كلمة ما، خبر عابر، صوت يرنّ بخفة، أو حتى رائحة، أيةُ رائحة يمكنها فتح نوافذ الروح على أحداث كم نود لو تركناها مدفونة في أوراقٍ الذكريات.

ها هي الذاكرة تجرها من مكانها لتعيدها إلى عيادة الطب النسائي في مستشفى كرومويل في لندن. طلبت منها الممرضة أن توقع على ورقة، هزت رأسها رافضة. نظر إليها عادل والشرر يخرج من عيونه، قال بالعربية: «لا تفضحينا... وقعي!». لن تنسى كلماته أبدا «أفضحك؟» شدت بأصابعها على القلم ووقعت وهي ترتجف. سحب الورقة من يدها وسلمها للممرضة بينما انخرطت هي في بكاء مرير. تذكرت صورة (البيبي) على جهاز السونار. كان قلبه يخفق. دبّت فيه الحياة. ربما كان ولدًا.. كان أحمد.

عادت الممرضة لتسألها

- «Are you sure you want to do this?»

لم تجب، كررت سؤالها. هزت رأسها موافقة.

كانت زهرة تتوق لطفل آخر. سارة وسالم أصبحا في عداد المراهقين، وانشغلا عنها بالحياة والمدرسة. تمنت أن تضم طفلاً مرة أخرى، أن ترضعه من صدرها، أن تسهر عليه؛ تراقب تنفسه وتنتظره أن يفتح عينيه. لكن حسابات عادل كانت مختلفة، كان قد بدأ صعود سلم النجاح بسرعة أدهشت أقرب المقربين له، وكانت خططه ومشاريعه تختلف عن خططها. عبارته الحارقة التي رماها بوجهها لن تنساها:

- هل تريدين أن تنجبي ضحية أخرى لهذه الأمة المتخلفة؟

من أين يأتي بمفرداته. كيف يمكن للإنسان أن يكون بهذه القسوة؟ كانت تجريحه يحفر عميقًا في قلبها. بعد العملية قال لها؛ وهما على باب المستشفى:

- فكري في الأمر. أنت أصلاً في سن غير مناسب للإنجاب، هل نظرت إلى نفسك في المرآة مؤخرًا؟

سحبها الألم إلى ذاك اليوم لتجتر كلّ عذاباتها دفعة واحدة. ما زال الألم يوخزها كلما عادت بها الذاكرة لغرفتها في الفندق، حين تركها وذهب لمقابلة عميل له كان يقضي إجازته في لندن. كانت وحيدةً ومنكسرة، وبلا أدنى شعور بإنسانيتها تركها تنزفُ وحدها، لا تقوى على فعل شيء غير أن تتحسس بطنها الخالية وتمسح عليها. لم يزدها ذلك إلّا نفورًا منه كلما انكمشت على نفسها وهي تشعر بالغثيان وكلّ ما فيها يصرخ مفتقدًا جنينه.

كأن الأقدار تسير حسب رغبته ومشيئته. لم يكن قراره إلّا حكمًا مؤبدًا عليها بعدم الإنجاب. فقد اضطر الطبيب إلى استئصال الرحم

بأكمله نتيجة لمضاعفات ونزيف شديد أثناء عملية الإجهاض، مما أعطبها كأنثى، وضمن السيد أنها لن تنجب ضحايا آخرين لهذه الدنيا البشعة. أخذت تبكي ضعفها وهوانها وتلوم نفسها لموافقتها على قراره. قراره هو لا قرارها بالطبع.

كان الزمنُ واحدًا بين ألمها أمام جنين لم يكتمل اذ قتله أبوه، وبين جنين اكتمل يقفُ أمامها مقتولاً بالحرب وبشاعة البشر. كان الزمنُ يفصلها بين طفلين، وبين ألمين، وبين حياتين. هاهو أحمد الذي، ربما رحمه عادل بالخلاص منه لتخليصه من بشاعة العالم، يقفُ أمامها بوجه علي. علي الذي فرح به أبوه لكنه ارتمى على أرصفة بيروت يواجه شظف الحياة وقسوتها وحده!

كل شيء كان يدور أمامها ليعيدها لذات لحظة الألم وهي تنظر لوجه علي (أحمدها الذي حُرمت منه) ليزداد سقوطها في هاوية الأسى وليصبح فؤادها وجوفها خاليًا أكثر.

لا شيء في هذي اللحظة يعيد لها اتزانها. ها هي أمام عتمة الليل وحيدة، إلّا من ضوء المصابيح الليلية تغرز مخارزها على جروحها فتشعر بالحرقة. حتى تلك اللحظة كان الألم يدفعها لجهة لا تدريها. كلّ شيء يجرّها ويعيدها لتتسمر في مكانها ضائعة. هل هو ضياعٌ فعلاً؟ الضياع كلمة ساذجة جدًا لمعنى يحفر في قاع روحها وكأنه منجلٌ يشتلُّ روحها شتلةً شتلةً ويتركها بنصف حياة.

نسمات رطبة تأتيها من جهة البحر، توقظها على واقعها فتسكن أصوات العالم جميعًا ولا تسمع إلا طنين ضربات قلبها. توقفت سيارة تاكسي أمام باب الفندق، ركبتها ووجهت السائق: «شارع الحمرا».

16

سيجار

إنها اللحظة التي انتظرتها دهرًا، ولكن!

لم تستطع العودة إلى غرفتها لتواجه آلامها وحيدة. نظرت إلى داخلها، فوجدت امرأة أسيرة مشاعر جامحة تتنازعها في عدة اتجاهات. أمومة ضائعة، زوج غريب وغريب حبيب. عاشق استطاع بزمن قياسي أن يجعل المسافة بينهما تتلاشى، يقرؤها كمن يقرأ كتابًا مفتوحًا.

- الغرفة رقم 414.

هذا كان نصّ الرسالة التي أرسلها لها ردًّا على سؤالها. «أين أنت؟» سيُحفَرُ هذا الرقمُ عميقًا داخلها لعمر قادم.

ترك باب الغرفة مواربًا كي تدخل دونما انتظار، إنه رجل يريدها وتشتهيه، وبين فاصل الرغبتين، تجيئه آخر الليل دون تحفظ.

كان بيل يقف ببنطاله الجينز وقميصه الكتان الأزرق أمام النافذة. الستائر مفتوحة على سماء بيروت الصافية. نسمات خفيفية تتسلل لتنعش جوّ الغرفة وموسيقى لاتينية هادئة تنبعث من جهاز الآيباد الملقى على الطاولة بجانب زجاجة ويسكي نصف فارغة وكأس

مليء. فاجأتها رائحة السيجار التي تملأ المكان. وجدت بقايا سيجاره يحترق ببطء في منفضة بجانب السرير. لم تكن تعرف أنه يدخن. هل هناك أشياء أخرى لا تعرفها عنه. دغدغها الغموض، بدا كلّ شيء وكأنه دعوة مفتوحة للمغامرة.

تقدمت بطيئة، حذرة، تسبقها دقات قلبها. أسرع نحوها يضمّها بذراعيه القويتين. ابتلعها صدره العريض. ما أن شمت رائحته حتى تساقطت بين يديه كغيمة ماطرة. هي نفسها الرائحة التي كان ينضح بها وهو يراقصها التانغو. ارتجفت حين طوق بيديه وجهها. استدارت عنه واستكانت للحظات وهي تنظر أمامها إلى الليل. أرادت أن تتكلم، فسارع يقول:

- ششش! ابقي ساكنة. أحبّ أن أسندك وأنت بين يدي. هكذا تبدين أكثر إغراءً يا زهرتي!

كلماته الهامسة في أذنها تحييها. هي الأرض البور التي تفتش عن ضحية، ووجدتها. استدارت نحوه. كلّ شيء حولها، حتى الوقت المتأخر يجعلها ترتعشُ رغبةً ورعبًا. كلما انتفضت، عصرها وشدها إليه أكثر. كان يريدها وظنت أنها كذلك.

رفعها ودار بها، حملها خفيفة نحو السرير. مدّدها برقة، وجلس يتأملها:

- هل حدث أن حملك أحدٌ هكذا من قبل؟

ابتسمت وهي تحاول أن تمنع الدموع من التغلب عليها:

- نعم. حملني القدرُ ورماني في حضن الألم.

قال لها وعيون الرغبة تلتف حولها:

- أنت في حضني الآن، كفي عن تعذيب نفسك. هل تعلمين منذ متى وأنا أنتظر هذه اللحظة؟

نكست رأسها:

- للأسف.. تأتي الأشياء الحلوة بعد فوات الأوان.

غشا الأسى عينيها. كانت بحاجة لمن يسمعها، بحاجة لأن تفرد حزنها، لتحكي عن وحدتها وانكسارها، عن حياتها في بيت أهلها، عن زوجها وجفائه، عن ولديها اللذين نسياها، عن أحمد الذي لم تنجبه، عن علي الذي ربما أنجبته في حياة أخرى... ووطن آخر.

اقترب منها. باتت تشعر بأنفاسه، أرادت أن تحكي، أسكتها بقبلة. راحت يده تمسحُ خارطة جسدها بتأني العارف. جسدها الذي يتحول أرضًا بكرًا كلما لمست يده مساحة منها، نما الورد فيه؛ وأينع. أمسكت عقلها عن التفكير. طردت وجه أبيها وإخوتها. حاولت جاهدة طرد وجها التوأم. وضعت الجميع في صندوق وأحكمت إغلاقه لتعيش لحظة لن تتكرر. أرادت أن تمسك اللحظة وتتشبث بها.. فاللحظةُ أمٌّ رؤومٌ تعطي أولادها ما يشتهون.

دمها الآن يفور أمام هذا الغريب الحبيب.

أصابعه تجوس جسدها وتتوقف حيث للإحساس صوت. كادت أن تستسلم، إلّا أن دموعها عادت لتخنقها. نخزها الوجع. لم تتمكن من إسكات الصور ولا الأصوات التي تتدفق في رأسها. اقتحمها وجه طفل الرصيف. هل كان عليًّا أم أحمدَ؟ أحسّت بالاختناق. اقترب وجه الطفل أكثر. أفلتت صرخة من قاع روحها:

- توقف أرجوك!

هزّته صرختها:

- ما بك حبيبتي؟ هل أضايقك؟

- كلا لكنه وجهه. قالت باكيةً بعد أن تكورت كجنين.

- وجه مَن ...؟

- وجه الطفل

ارتد متسائلاً:

- أي طفل؟

- الطفل السوري الذي وجدته نائمًا على الرصيف.

انتفض وتوجه نحو الطاولة، رفع كأس الويسكي وأفرغه في جوفه ثم عاد لها مستشيطًا:

- هل أنت جادة؟ تنفرين مني مرة أخرى، وتعاملينني بكلّ هذه الغلظة وتعكرين صفو لحظتنا بسبب طفل سوري؟ وما الذي تعنيه لك سوريا؟ أنت لست سورية ولا مصلحة لك فيها!

ثمّة ما يطعنُ روحها الآن! أيُعقل أن هذا الرجل الذي أحبته والذي استطاع الوصول إلى عمق إحساسها لا يملك ذرة من الإنسانية؟

- ماذا تعني بأني لست سورية؟ أنا إنسانة. ألا أبكي لطفل إفريقي مات جوعًا، أو لطفل سوري ذُبح أو قُتل بالكيماوي! بيل أرجوك، لا تجعلني أكرهك!

فرّت الكلمات من فمه دون حساب:

- إن كان لا بدّ وأن تكرهي أحدًا. فأظنه مستر عادل!

- عادل! ما به؟

ملامح الاشمئزاز تعلو وجهه، عيناه تجولان في الفضاء دون تركيز. راح يتمشى بالغرفة وكأنه على وشك أن ينفجر:

- زوجك يا حلوة هو الذي يقتل أطفال سوريا!

أخرستها الصدمة. فأكمل:

- ألا تعرفين أنه يتاجر في السلاح؟

كان انفجارًا حقيقيًّا حين انفجرت الحقيقة كقنبلة في فضاء الغرفة، شعرت زهرة بدويّها في أعماقها. لم تكن هناك لغة يمكنها أن تصف حالها في تلك اللحظة. أصابها الذهول، شلت أوصالها، جفّ ريقها، وأحست أنها ستغيب عن الوعي. استرسل مترنحًا:

- أنت إما غبيّة أو أنك تستغبين، متجاهلة طبيعة عمل من تحملين اسمه، زوجك يا سيدتي يموّل الموالاة والمعارضة، يعني هو ليس مع هؤلاء ولا مع أولئك. هو مع المال ومن يدفع أكثر. فإذا به يقتل السوريين من الطرفين، وأنت تدفعيني عنك بحجة طفلٍ سوري...!

ودّت لو تصرخ. لو تبصق بوجه هذا العالم. لو تفعل شيئًا.

عادل يتاجرُ بالسلاح!

17

فلافل

سيارة التاكسي التي أتت بها إلى بيل، هي نفسها التي أعادتها بعد ساعة إلى فندقها. لاحظ السائق تغيّر حالها، مدّ يده إليها بمنديل مواسيًا: طولي بالك يا ست، مو بيقولوا بكرا أحلى؟ حاولت الابتسام وفشلت، همست لنفسها أي بكرا؟ لم يعد هناك بكرا.

الليل يقرأ وجوه عابريه، فيتلألأُ فرحًا بمصابيحه حين يبتهجون، ويطفىءُ عينيه حين يراهم مكتئبين. ها هو الليل يتعاطف معها ليبدوَ موحشًا بطرقاته شبه الفارغة إلّا من الظلمة وكنّاسي الشوارع وأكوام اللحم البشري على الطرقات.

فيما نظراتها تتابع عواميد النور المتلاحقة وحاويات القمامة ووميض الإعلانات، تسترجع كلمات بيل. ذاك الوحش الذي أجهز على ما بقي فيها من أمل. كان يلبس بدلة الجنتلمان، لكنه عندما فتح فمه، بدا كتنين يبث نيراته ويكويها بكلماته. هل يعقل أنه وريتشارد يعملان عند المعلم الكبير الذي ما هو إلّا عادل؟ بيل حتى لم يكن في بريطانيا عندما أرسل لها يبدي استعداده للقائها. كان في بيروت نفسها لعقد صفقة مهمة للمعلم. قال لها: إن عادلاً كان قد دخل مضمار تجارة الأسلحة منذ سنوات وقبل أن يتعرف عليه. لكن مع بداية الحرب

السورية، لاقت تجارة السلاح في سوريا إقبالاً كبيرًا لتسليح الفصائل العسكرية المتقاتلة، والمدنيين الذين اضطروا لشراء الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، احتاج عادل لمساعدين، وفضّل أن يكونوا أجانب لإبعاد الشبهات عنه. التقاه في اجتماع بنكي في سويسرا منذ سنة ونصف، ومنذ ذاك اليوم أصبح هو وريشارد يعملان معه في تجارة الموت.

طفح الكره في قلبها لأقصى حالاته عندما شرح لها بيل، وكأنه غير معني بالموضوع، أن عادلاً انضم إلى مافيا تهريب السلاح، بعد أن تعرّف إلى مجموعات من التجار العراقيين والسوريين الذين يعملون في التهريب بين البلدين، ويهرّبون للفصائل السورية المسلحة قنابل ومدافع وقذائف آربي جي وصواريخ كتف وذخائر. لكن أحلام عادل الكبيرة جعلته يتوسع في تجارته، فبينما يعقد صفقاته في العراق وبيروت لتمويل الفصائل المسلحة، كان يبرم صفقات أخرى في موسكو وشنغهاي لتمويل النظام السوري. كان يغذي الطرفين. المبدأ واحد: لا مبدأ!

وصلت إلى الفندق، فتح لها البواب، الذي حاول غض النظر عن حالها، باب السيارة فنزلت متباطئة. ليس هناك شيء يستدعي العجلة. غدها أصبح أشدّ قتامة من أمسها. تسير بشعور لا يُطاق باللاجدوى. فقدت كلّ شيء. باتت وحيدة، وحدة كسرتها. زوجها، أولادها، أبوها، إخوتها. من تبقى؟ دون شعور اتجهت نحو علي، فوجدته متكورًا في (غرفته) على قارعة الرصيف. انحنت فوقه. شمّت رائحة البحر من الندى العالق على جبينه. مسحت على رأسه. دمعة من عينها سقطت على خدّه فاستيقظ مذعورًا. عندما رآها ابتسم كمن تعرّف على أمه بعد فراق.

- أهلين خالة.

ابتسمت له. سألها:

- ما بك؟

- لا شيء حبيبي. اشتقت لك فقط.

كطفلة أضاعت لعبتها، فرت دموعها دون إنذار. قام على ركبتيه، مد ذراعيه الصغيرتين وضمّها بهما. لم تفزعها لمساته كما العادة، ولم تجفل من ذراعيه. وجدت نفسها تلوذ بصدر طفل غريب تحتمي من نفسها به، وتشم رائحة براءته. مد يده يمسح دمعها:

- لا تبكي يا خالة، الله يخليكي لا تبكي. من كتر ما أمي بكيت راحت عيونها.

غرقت في بكائها أكثر. نظرت إليه؛ «هذا الولد كم يشبهني. هو القادم من المكان الذاهب الى اللامكان. أمسه عذاب، يومه أسى وغده مجهول».

- خالة، قومي نتمشى.

لم تشأ أن تُرهقَ نفسها بالأسئلة، قامت وكأنما قوة خفية تسيرها. توجهت إلى بواب الفندق. أعطته حقيبة يدها الصغيرة. رفعت فستانها الطويل، أمسكت بيد علي وعبرا الشارع نحو الكورنيش.

كانت الساعة تقترب من الرابعة فجرًا. بينما الضوء يشق آخر خيوط الفجر الكاذب، ليحل مكانه فجرٌ صادقٌ، كان الجوّ يعتدل شيئًا فشيئًا. الكورنيش شبه فارغ إلا من بعض صيادي السمك ومتريضي الصباح الباكر. على بعد أمتار، رجل مسن يغط في نوم عميق على أحد

الكراسي وكأنه في بيته. شاب ينام أمام عربته التي سيبيع منها القهوة لمرتادي الكورنيش بعد قليل. عامل النظافة يمشط أرض الشارع بكسلٍ وتملل، فينقل الأوساخ من جهة إلى أخرى دون اكتراث.

مشيا معًا بصمت وهيبة، كأنهما يودّعان جنازة ما، علّها كانت تودّع نفسها التي لن تعد نفسها. كانا مترعين بالألم، كلّ يفكّر في حاله. دقائق مرت قبل أن تستوعب أن البحر بعيد عنها، يفصله عنها حائط اسمنتي بارد وصخور ضخمة. التفتت نحو علي:

- أريد أن أنزل إلى الرمل إلى البحر، لا أحب المشي على الأرض اليابسة.

سحبها من يدها فرحًا، هو الخبير بهذه الدهاليز:

- أنا أدلك على الطريق. تعالي.

مشيا لدقائق قبل أن يصلا إلى مفترق صخري يشقه ممرّ رملي ضيق ووعر. التفت نحوها:

- لكن كيف ستنزلين على الصخر وأنت بلباسك هذا وكعبك العالي؟

لم تحتج للتفكير طويلاً، وبفرح بنت يحدوها النزق، رفعت فستانها وربطته ببعضه بطريقة غريبة فثبت عند خصرها يتدلى حتى منتصف ساقيها. خلعت حذاءها، التفتت نحو علي متباهية، ورمته فردة بعد أخرى من فوق الصخر، فسقطتا فوق الرمل ممهدتين لها الطريق. ضحك علي ضحكة نبتت في قلبها. أخذ بيدها يسندها وهي تتبعه بين الصخور.

كان البحر هادئًا إلّا من موجٍ خجولٍ يهمس لرمل الشاطئ ثم

يعود بخفة. جلسا على الرمل فشعرت ببرودة لذيذة. تمددت زهرة، تنظر نحوً السماء فداهمها الحزن كغيمة فاجأتها بالرعود، شيءٌ ما جثم على صدرها ككابوس لا يمكنها الفكاك منها. الشاهد الوحيد على حزنها كان هذا الصبي الجالس جوارها. استدارت نحوه وهي تسند رأسها بيدها:

- احك لي يا علي. من أين أنت، ماذا يعمل أبوك؟

- أبي يملك مشتل ورد. نزرع فيه الورد والياسمين البلدي وشجر السرو. نحن من ضيعة في سوريا جنب حمص. اسمها مشقيتا، ضيعة على سبع بحيرات. انت بتعرفي سوريا؟

- لا والله يا ابني. كنت دائمًا أخطّط لزيارتها لكني لم أحظ بالفرصة. حلوة سوريا؟

- حلوة وبس؟ سوريا بتجنن لولا الحرب كنت أخذتك لزيارتها لتتفرجي عليها.

ردّت بحزن:

إن شاء الله تخلص الحرب وتأخذني.

ردّ عليها كخبيرٍ حربي. هذا الولد يحكي بلسان التسعين وهو في التاسعة.

- من وين بدها تخلص؟ كنا بحرب بين النظام والثوار، صرنا بمية حرب بين كلّ الناس.

- أنت كيف تفهم بهذه المواضيع؟

- كيف أفهم؟ هي بلدي.. وأنا أتابع الأخبار عند أبي الياس

صاحب البقالة خلف الفندق. يدعني أتابع أخبار الساعة الثامنة فقط، ثم يطردني من دكانه، وأحيانًا يعطيني علبة عصير على الماشي.

شعرت به يتململ في جلسته، سألته إن كان الرمل يضايقه، فأنكر، حشر يده داخل بنطلونه وأخذ يتلمس أعلى فخذه من الخلف:

-عندي جرح هنا، يؤلمني أحيانًا.

كلّ شيء بدأ يستنفرُ فيها وكأن كلّ صافرات إنذار العالم رنت في رأسها، جرح أعلى فخذه؟ اقتربت منه:

- علي. دعني أرى الجرح، ربما يحتاج لعلاج.

صرخ في وجهها محتجًّا:

- عيب.

- أنا مثل أمك يا حبيبي، طيب قل لي، كيف جرحت؟

سكت لبرهة، ثم قال:

-وقعت على الدرج.

- لكنّ الدرج لا يجرح يا ابني، كن صادقًا معي. هل ضايقك أحد؟ هل حاول أحد أن...!

قاطعها بصوت اجتهد أن يخرج خشنًا:

- أنا رجل. لا أحد يستطيع أن يعتدي عليّ، ولا أن يمس شعرة مني. رفسته برجلي رفسة لم يقم من بعدها. هناك.. فهمتي؟ وهربت راكضًا أنا وابن عمي صالح.

زاد قهرها. أحست أنها تطل على حياتها من عيني هذا الصغير.

انتبه علي، فصرخ بها فجأة:

- قومي

- إلى أين؟

- لنذهب لنفطر. أعرف مكانًا قريبًا من هنا، يبيع أطيب فلافل، ألست جائعة؟

تذكرت أنها لم تأكل إلّا القليل في العرس، فردت:

- بلى... جائعة جدًا.

- طيب الحقيني.

بدون جدال، قامت كالمسرنمة. صعدت الممر الضيق الذي نزلت منه قبل دقائق وعندما وصلت الرصيف نظرت فلم تجد عليًّا. بحثت فوجدته ما زال في الأسفل يقف على الرمل رافعًا حذاءها بيديه ويضحك:

- نسيت حذاءك!

«يا إلهي.. هل كانت تلك إشارة؟ هل وجدت سندريلا أميرها الذي سينقذها من بؤسها؟» تمنت.

كطفلة تتبع خطوات والدها خوفًا أن تضيع، مشت خلفه. عند مدخل حارة ضيقة وصلتها رائحة الفلافل المقلية. توقفا عند محل صغير كتب عليه، فول وفلافل وفتة. عند الشباك تجمّع عددٌ من عمال الصباح يشترون فطورهم اليومي. نجارون، حدادون، عمال بناء، لبنانيون، سوريون، هنود، بنغاليون، يجمعهم الفقر وساعة الصباح الأولى. دون شعور، وقفت بينهم. أمام الجوع يتساوى البشر. عندما

رآوها، التفت كل واحد منهم ينظر بدهشة إلى تلك السيدة ذات الفستان الأحمر بصحبة طفل مشرد. لم تكترث، لكزها علي، فتحركت وشقت طريقها وراء قائدها إلى داخل المطعم. محل ضيّق لكنه يفي بالغرض. أربع طاولات قديمة وزعت حولها كراسٍ بلاستيكية ملونة وعلى الجدار المقابل علقت مغسلة صغيرة تعلوها مرآة معتمة. مطعم بسيط للبسطاء. اختار الطاولة في الزاوية، قرب المغسلة. طلب منها رجلها الصغير أن تغسل يديها، ففعلت دون تردد. أتاهم النادل بوجه متجهم. نظر إليها باستغراب فشل في إخفائه، ثم ألقى عليهما السؤال الذي يكرره منذ الصباح حتى آخر النهار:

- بشو بتؤمروا؟

التفتت لعلي متسائلة، فطلب من النادل سندويشتي فلافل. استوقفت زهرة النادل الذي كان مستعجلاً لا لتلبية طلبهم، بل لإنهاء مهمته، وطلبت صحني فول وصحني فتة، وعندما سألها النادل فتة بزيت أو بسمنة لم تعرف الفرق، فتبرع علي بالرد:

- بسمنة يا معلم.

سألته:

- ما الفرق بين فتة الزيت وفتة السمنة؟

- لا أعرف... أمي كانت تعملها بالسمنة.

أكلت بنهم لم تعتده، التهمت سندويشة الفلافل، ونصف صحن الفول، والكثير من الفتة. أكلت بمتعة جائع. بين لقمة وأخرى كانت تسترق النظر إلى علي، وتتابع متعته بوجبة كاملة لم تكن من بقايا وجبات الآخرين. قاومت رغبة ملحة أن تطعمه بيدها، وأخذت تكرّر:

هنا وعافية. شعرت بالرضا ونسيت كلّ خذلان الساعات الماضية. تساءلت «أيكون هذا هو الفرح؟ هل هو بهذه البساطة؟ صحن فول وسندويشة فلافل في مطعم عمال، في ساعات الفجر الأولى، بصحبة قلب بريء دون غاية. إذًا لماذا يشقى البشر وهم يبحثون عنه، بينما هو تحت أنوفهم؟».

عندما انتهيا من فطورهما، قاما ليغسلا أيديهما مجددًا. جفلت زهرة مرعوبة عندما تذكرت أنها لا تحمل حقيبة ولا مالاً. نظرت إلى علي، وضحكت ضحكة ساخرة لم يفهمها. تركته أمام المغسلة واتجهت إلى طاولة المحاسبة عند باب المطعم، رجل عجوز يجلس خلفها يبدو أنه صاحب المكان منذ سنين، نظرت إلى حبات النمش على وجهه، وبخبث فكّرت أنها عينات مصغرة عن أقراص الفلافل التي يبيعها.

أعجبها المزاج الرائق الذي هطل عليها دفعة واحدة. نظرت إليه مبتسمة، وبكلّ بساطة، نزعت من اصبعها خاتمها الذهبي، ومدت يدها به.

تفضل يا عم.

نظر الرجل إلى المرأة الغريبة بفستان السهرة الأحمر الطويل وهي تضع أمامه خاتمًا ذهبيًا جميلاً، متسائلاً:

- ما هذا؟

- هذا خاتم زواجي يا عم. لا أملك مالاً لأدفع قيمة الفطور، خذه.

رفع الرجل يديه في الهواء، كأنه يتبرأ من الخاتم وهو يتمتم غاضبًا:

- هل جُننت؟ هذا الخاتم ربما يشتري المحل كله وليس فلافل وفول، اذهبي يا ابنتي بطريقك وعوضنا على الله.

شكرته ضاحكة، وعادت تضع الخاتم أمامه:

- هذا لك يا عم، لم يعد ينفعني، خذ حقك منه والباقي تبرع به لأطفال سوريا.

سحبت علي وخرجت. خرج الرجل العجوز خلفها يصرخ:

- انتظري يا بنتي، الله يرضى عليك خذي خاتمك.

استدارت بخفة، نزعت ربطة شعرها، أطلقت شعرها الطويل للريح، رفعت يدًا في الهواء وباليد الأخرى أمسكت بيد علي. ضحكت بصوت عالٍ وهي تصرخ:

- عندي ما هو أحلى من الخاتم. مع السلامة!

عادا إلى الفندق مشيًا، تعبت من حذائها فنزعته وراحت تمشي حافية وفستانها معلّق بيدها. تسرب إليها شعور غامر بالحرية لم تعتده، فيما اختلطت في داخلها عواطف متناقضة بين الحزن والفرح، بين الغضب والانتقام، بين اليأس والأمل. وبينما هي في هذا التخبط، استوقفها علي وكأنه يعتذر لها عن ذنب اقترفه. أخبرها أنه سيذهب إلى طرابلس اليوم استثناءً عن العادة، لأن أخته الصغيرة مريضة وأمه تحتاج للمال كي تأخذها للطبيب. كان قد جمع عشرين ألف ليرة من بيع الورد ويريد أن يوصلها لها.

سألته عن كيفية ذهابه؟ فأجابها أنه كالعادة، إما سيركب سيرفيسا أو إن كان محظوظًا، أقله ابن حلال في سيارته بالمجان.

توقفت للحظة ثم قالت له:

- سأذهب معك.

أعجبها قرارها المرتجل فأكملت:

- عندما نصل للفندق، سأستحم وأغيّر ملابسي وأرتاح قليلاً ثم نأخذ سيارة وننطلق سويًّا إلى أمك.

كمن قبض على عيدية في يوم عيد، شعّ وجه علي بابتسامة فرح. ضحكة عذبة احتلت وجهه البريء بالكامل. عاد يسألها مؤكدًا:

- ستذهبين معي؟

كانت الساعة تقارب السابعة عندما وصلا الفندق. نظرت إليه، مسحة من فرح جديد تجلّل ذاك الوجه الصغير. شعرت بفيض حنان نحو هذا الصبي القادم من المجهول. حاولت أن تدخله معها إلى غرفتها، لتجهّزه للقاء أمه بصورة جديدة. تحمّمه، تغيّر له ملابسه الرثة، أو ربما كي يبقى بجانبها فقط. أوقفها البواب قائلاً: إن هناك تعليمات صارمة من إدارة الفندق بمنع أيٍّ من هؤلاء الدخول، وإن سمح له، سيطرد هو من عمله. لم تدع تلك التفصيلة تسرق من علي فرحته. وعدته أن تلاقيه أمام الفندق في الساعة العاشرة والنصف.

صعدت إلى غرفتها تحاول أن تجمع خيوط يومها، وحياتها معًا. ماذا ستفعل؟ رجع صدى السؤال صادمًا. هي المهزومة، المنكسرة، المخدوعة، هل سترمّم العالم؟ تخطّط لمشوارها مع علي. ستذهب إلى أمه. لكن لماذا؟ لم تجد الإجابة، ربما كان في نيتها أن تعيد الطفل لمحيطه الطبيعي. أن تعيد ترتيب أوراق هذا العالم كما تعيد ترتيب أدراجها وخزائنها. هكذا بكلّ بساطة: علي كان كتابًا خارج الرف ويجب أن يعود إلى مكانه الطبيعي.

صورتها المنعكسة في مرآة الحمام أرعبتها. وجهها بدا مختلفًا وكأنه وجه امرأة أخرى، امرأة لا تعرفها. كيف تتغير ملامح إنسان في ظرف أربع وعشرين ساعة؟ كيف تتغيّر نظرة عينيه ولون بشرته؟ رفعت كفيها إلى أنفها. حتى رائحتها تغيّرت. خرجت من الحمام وهي تلف المنشفة حول شعرها الرطب عندما سمعت طرقًا على بابها، ذهلت عندما رأت لولوة ومنيرة وخلفهما عامل الفندق يجر حقائب السفر. نظرت إليها لولوة بدهشة:

- لماذا لم تجهزي حتى الآن، موعد طائرتنا بعد ثلاث ساعات.

مرت دقائق قبل أن تعي زهرة أنها كان من المفروض أن تكون على نفس طائرة صديقتيها المغادرة إلى الكويت، تلعثمت ثم قالت:

- لا أستطيع يا لولوة، لم أنم طوال الليل، يبدو أني أخذت بردًا من المكيف أو جرثومة في المعدة، قضيت الليل في الحمام وأنا أتقيأ.

- لكن يا حبيبتي يجب أن نغادر اليوم، دون تأخير. يبدو أن هناك خطرًا ما. سفارة الكويت في بيروت، أصدرت بيانًا يطالب كلّ الكويتيين بمغادرة لبنان حالاً.

- لا أستطيع، صدقاني، المغص شديد جدًا، ولا أستطيع الابتعاد عن الحمام. سألحق بكما في طائرة المساء. سأحجز على آخر رحلة لطيران الشرق الأوسط. أظنها تغادر في الثامنة مساء.

احمرار عينيها وشحوب وجهها، أكدا ما قالته لصديقتيها، فطلبتا منها أن تذهب للطبيب إن ساءت حالتها أكثر، وودعاها على أمل اللقاء في الكويت. تمددت فوق فراشها، مبلّلة الشعر جافة الروح. تشعر بخواء قاتل إلّا من دمامل تتقيّح داخلها. رجعت إلى شرنقة حزنها. لم يبقَ لها أحد. استلقت على جانبها، تحاول أن تفهم ما يجري لها. دمعة

احتبست في عينها، لتنساب خارجة ببطء. امتطت هضبة أنفها ثم تسللت نحو عينها الأخرى؛ لسعتها حرارة الوجع الذي تحمله. تكومت، أمسكت بيد دمعة في العين الأخرى وزحفتا خارجتين معًا لتستقرا على وجه مخدتها... ختمَ وجعٍ.

كادت أن تستسلم لكآبتها، لكنها تذكرت عليًّا، هذا الصمغ الذي منذ أن التقته وهو يطبطب على قلبها ليلئمه رغم الجروح. قامت ودموعها.

ثمّة هوّة سحيقة تفصلها عن عالمها الأصلي. هوّة تتسع يومًا بعد يوم، جرحًا بعد آخر. قبل أن تغادر الغرفة، رفعت السماعة. أتتها صورة شقة السالمية. دروس الدين. دعوات الشيخة لها وتفسيراتها. دفء حضنها وهي تمسح دموعها وتقرأ عليها القرآن. تحذيراتها من غدر أقرب الناس لها.

رنّ الهاتف على الطرف الآخر البعيد. حالما سمعت الصوت على الطرف الآخر أحست بحاجة لمن يسندها، لمن يمد يده لها كي تقف.

نداء توسل خرج من أعماق روحها:

- ألو شيخة أمل. أنا ضائعة وأحتاج دعواتك. ادعيلي بحق دين محمد الذي تدعين له كلّ يوم.

شعرت بارتباك الشيخة وقلقها من نبرة صوتها.

- أين أنت يا زهرة؟ قلقت عليك يا حبيبتي. غبت عن عدة دروس ولم تقولي لي. اتصلت بك على هاتفك كان مغلقًا. كنت قلقةً عليك أن تكوني تأثرت بالجريمة التي حصلت عندكم.

أحست بضعف في ركبتيها:

- أي جريمة؟

- حسبتك تعلمين. الخبر كان في الصحف. بواب عمارتكم قتل زوجته.

عمارة، بواب، جريمة! تقاطع مسرى الكلمات في رأسها. لم تعد تحتمل ألمًا أكثر. «حسيبة.. يا الله حسيبة. لقد خذلت حسيبة». استرجعت ملامح وجهها وهي تتوسلها أن تحلّ لها مشكلتها، تذكرت الرعب الذي كان في بحّة صوتها. رنّ في أذنها جرس الاتصالين حين لم ترد عليهما. «كانت تناديني، تستنجد بي!» طعنها الألم. «ماذا لو لم أحضر لهذا العرس الباذخ، هل كنت أنقذتها؟ ماذا لو لم أسع للـ «الشوينغ»؟ ماذا لو نفذت وعدي لنفسي واتصلت بالمرأة؟ هل كنت سأجد الوقت والحل لمصيبة المسكينة؟» غرقت في الذنب وهي تؤنّب نفسها.

أكملت الشيخة:

- جريمة القتل كانت بشعة، لكن سببها كان أبشع يا زهرة. الزوج اكتشف خيانة زوجته مع الكاتب المعروف خليفة أحمد. جاركم.

لم يسبق لها أن كانت أقرب إلى الهاوية. صور مختلفة تتصارع في رأسها. وجه حسيبة، أسنان عطية، حجاب الشيخة الأزرق الفاتح، وجه عادل، أطفال خليفة، يدا أخيها، ابتسامة سارة، عينا سالم. انهار عالمها،

اصطكت ركبتاها، تهاوت فوق الفراش، ندت عن روحها صرخة خرساء لم يسمع صداها سواها.


دم

لا أدري أي هوس يسيطر عليّ ليجعلني أحكي لكم قصتي! أي عفريت يتلبسني لأفتح الجرح القاتل وأرشه بالملح! أي رغبة تتملكني لأخبركم بسرٍّ أنام كي أنساه وأستيقظ دون أن أنساه !أعرف أنكم قرأتم كلّ ما سرده الراوي عني، لكن الحقيقة تقولُ لا أحد يمكنه فتح صناديق أسرار الغير كاملةً، فمهما كان عارفًا بي لن يستطيع أن يخبركم عني كما سأفعل أنا.

قضيت نصف حياتي في بيت أبي ونصفها الثاني في بيت زوجي. لم يكن أيٌّ منهما حنونًا عليّ أكثر من الآخر. إذ كلاهما كان ينضحُ بشاعة. كبرتُ ومعي كبرت البشاعة. قست عليّ الدنيا بطريقة مروعة دون أن يعرف أو يحس بي أحد، هل كان عليّ أن أقتل قلب أمي وأخبرها عما يقترفه أخي في فراشي؟ لا أعلم، ربما كان عليّ أن أفضحه وأفضح هذا البيت الغارق في هيبته وقدسيته، لكني جبنت ولم أفعل. سكتُّ وسكتَ إلى أن انتهيت امرأة تخبئ خزيها وعارها تحت جلدها، وتستمر بحياتها بندوبٍ تراها وحدها. كمية الغيظ والحقد اللذان حفرا عميقًا في قلبي، قاداني إلى طرقات مظلمة. بحثت عن النور، ولم أجد سوى عتمة مضللة. عتمة الإنسان، عتمة الأوطان. كنت أبحث عن الخيانة في عالم ظننته وفيًا، فوجدت الخيانة تحيط بي من كلّ حدبٍ وصوب، فبقيت وفية لحزني النبيل.

خرجت من الفندق وأنا بالكاد أستطيع المشي. وجدت عليًّا وقد استحم ومشط شعره الذي تركه مبللاً ليحافظ على هيئته المرتبة وعاد لملابسه الرثة نفسها؛ بنطلون الجينز الممزق، قميصه الأصفر الباهت، وحذاء رياضي خرجت بعض أصابعه منه لضيقه. قابلني بابتسامة عذبة كطالب في أول يوم مدرسة يريد أن يترك أثرًا جميلاً عند المدرّس. صافحني كرجلٍ، رجلي الصغير. شكله، شعره المبلول،

ابتسامته، يده الممدودة لي ملأوا قلبي حبًّا. قبّلت رأسه، أمسكت بيده، أنا التي كنت بحاجة لمن يمسك بيدي واتجهنا نحو السيارة.

ركب بالمقعد الأمامي، فطلبت منه أن يجلس بقربي. كنت أحتاجه أكثر مما يحتاجني. قفز إلى الكرسي الخلفي، واقترب مني وكأنه شعر بي. سألني:

- أنت مريضة؟

لا يا حبيبي. عندي صداع خفيف سيزول قبل أن نصل إلى طرابلس.

- لا تخافي، عندما نصل عند أمي سأطلب منها أن ترقيك، كانت معروفة بالضيعة برقيتها المباركة. كلّ الجيران يقصدونها لترقيهم.

انطلقت السيارة بنا. مررنا من أمام منطقة الجميزة في طريقنا للخروج من بيروت. ألقيت نظرة سريعة على مسجد الأمين وهو يجاور كاتدرائية سانت جورج. أحب منظرهما يتعانقان نحو السماء معًا. دعوت ربي بكلّ أديان العالم أن يساعدني فيما أنا به.

التفت عليّ هامسًا:

- هنا وراء الجميزة يعيش ابن عمي صالح مع أصحابه. بدك تشوفيه؟

وافقت دون تفكير. في زقاق خلفي، وفي كراج مهجور، وقفت شاهدة على منظر طعنني كما لو مدية اخترقت جسمي. لوحة بشعة للبؤس الذي يتسبّب به الإنسان للإنسان. أطفال يتكورون بجانب بعضهم البعض كجرذان يختبئون في جحرهم. لحافات قديمة، كراتين مستعملة، قاذورات والكثير من الذباب كان يغطيهم. رائحة

المكان تنضح بالبؤس. غطيت أنفي بيدي لا شعوريًا، ثم لمت نفسي. ما أن دخلنا حتى أفاق بعض منهم مستغربين وجودنا. قام صالح ليحيي ابن عمه، فرحت أنظر في تلك الوجوه الطفولية الشاحبة. أكبرهم لم يتعدَ الثانية عشرة.. وأصغرهم في السادسة. من أين أتوا وإلى أين هم ذاهبون؟ لم تعد تلك القصص تهم أحدًا. فقدت حكاياتهم صفتها الشخصية، واتحدوا بالجوع والتشرد.

لاحظت حاجزًا قصيرًا من الكرتون. خلفه نامت فتاتان في عمر البراءة. فهمت من صالح أنهما ابنتا خالته، وأنه يفصلهما عن الصبيان بذلك الحاجز خوفًا عليهما كونهما بنات. أفاقت سلمى. شدني لها شيء لم أستطع تفسيره. تقدمت نحوها فقامت جالسة متشككة من غرضي. طفلة في غاية الجمال، لا تتعدى التاسعة بعينين زرقاوين وبشرة بيضاء كالحليب، حتى أني أكاد أرى العروق الزرقاء تحت جلدها. اقتربت منها، جفلت. شيء في عينيها حكى لي قصصا لم تحكها هي. رأيت الذل والفقر والجوع والعذاب. شممت رائحة اليتم. سألتها. قالت إن أباها استشهد في حلب. رفعت ذراعها وصوبتها نحوي لأرى. وليتها لم تفعل. كانت يدها مبتورة من الرسغ. لم أشأ أن أنكش جرحها بالتفاصيل. دموع فرّت من عينيها قصمت ظهري. مسحت على شعرها الأشقر الطويل. عصرني الألم. تأملتها، لو كانت في بلد آخر لربما وضعوها في مسابقة ملكة جمال الأطفال، أو لربما اختلقوا لها موهبة ليقدموها في واحد من برامج المواهب الجديدة. سألتها: ماذا تفعلين هنا؟ ردّت بعذوبة:

- أبيع الورد. وأغني!

- تغنين؟؟ إذن تمتلكين موهبة!

- أيوا. أنا صوتي حلو كتير وكنت غني لفيروز وأسمهان، لكن الآن لا أغني إلّا أغاني الثورة.

دون تردد غنت لي. راح صوتها الرقيق يصدح:

«يا حيف اخ ويا حيف زخ رصاص على الناس العزّل يا حيف.

وأطفال بعمر الورد تعتقلن كيف.

وانت ابن بلادي تقتل بولادي. وظهرك للعادي وعليي هاجم بالسيف.

يا حيف يا حيف».

لم تكن طفلة تلك التي تغني، كانت قطعة شجن في زمن أصم. تسرب صوتها وكلمات أغنيتها لأعماقي، واستقطبت كياني. لم أعد أسمع سوى (يا حيف!). ركعت أمامها. ركعت أعتذر خجلة من نفسي، من أناقتي، من نظافتي، من حقيبة يدي، من السيارة التي تنتظرني والطعام الذي سيدخل في معدتي. خجلى من البيت الذي أسكنه هناك، ومن الحرّ ومن البرد ومن الأرض والسماء.

لم أدرك كم مضى من الوقت وأنا في ذلك المكان؟ لكن عند نقطة ما وقفت وكأني أخرج من كابوس. حملت وجعي وخرجت. لم أكن أحتاج لسبب جديد كي أحزن. أصبح الحزن هو العادي، وكل ما عداه استثناء. عدنا إلى السيارة وانطلقنا في طريق الآلام. بائع كعك صغير يمشي بين السيارات. سألت علي إن كان يودّ كعكة. لم يرد. ففتحت النافذة واشتريت ثلاث كعكات لنا وللسائق. وضعت في يد البائع الصغير مبلغًا جعله يرقص فرحًا ويدعو لي ولولدي الذي رآه معي في السيارة.

كان الصباح جميلاً رائقًا، داعبت الشمس وجهي، ورغم حرارة الجو، تسلّلت نسمات لطيفة من نافذة السيارة. أرحت رأسي إلى الخلف. سرقني خيط ذكريات آتٍ من بعيد. أتبعه كمن تعبر نحو ضفاف لا يسكنها غير الوجع. لافتة صفراء كبيرة تنتصب في منتصف الشارع دعاية لأحد أصناف البيرة. بطريقة ما أعادتني إلى اللافتات الصفر التي انتشرت في الكويت بعد التحرير: «لن ننسى». ولكم تمنيت أن أنسى.

بشاعات حياتي كلها احتشدت في رأسي. ألم يكفني ما واجهته ليلة أمس؟ لماذا أشم رائحته النتنة الآن؟ تجمدت الصورة في عينيَّ. رأيت وجهه، أحسست بثقل جسده فوقي شعرت بانتفاضته. انتفض قلبي غضبًا. قرف ينتابني وهو ينقض عليّ. لم تكن المرة الأولى، لكنها كانت الأخيرة. كنت قد وعيت لألمي ووجعي وقهري. لن أتركه يعبث بجسدي بعد اليوم. هكذا قلت لنفسي وأنا أرفس جاسمًا عني. لم يتراجع إلّا عندما فتحت فمي لأصرخ هددته:

- قسمًا بالله لن أسكت. سأقول لأمي ولأبي، أبوك الذي يظنك إلهاً

حمل ذيول خيبته وعاره واختفى. اختفى من حياتي كليًّا. بت لا أراه إلّا وقت الغروب. لا يوجه لي أي كلام، وحتى إن تصرفت بأمر لا يعجبه، كان لا يعترض. عندما قال لأمي: إني مُعاقبة لأني أقرأ روايات فاسدة وتفسدني، صدقته، وعاتبتني: «لا تزعلي من أخوك يا بنتي، هو يخاف عليك ولا يريد لك إلّا الخير». قالتها وهي تمسح دموعي وتقرأ عليّ المعوذتين كالعادة. «أخ كم أحب طيبتك يا أمي وكم أكرهها».

كنت أراقب أختي الوسطى التي تطلقت بعد أشهر من زواجها،

ولا أدري إن شاركتني مصيبتي، لكني كنت ألمح قهرًا في عينيها. لم أتجرأ يومًا وأسألها، إلى أن واجهتني يومًا وأنا في زيارة لبيت أهلي بصحبة سارة وسالم. كنت وحدي خارج غرفة أمي المقدسة أنتظرها تنهي صلاتها، حين وجدتها تقترب مني. جلست أمامي كمذنبٍ يجلس على كرسي الاعتراف في كنيسة، سعيًا لتطهير نفسه. كما لو كنت (الراهب) المناسب لأهبها صك الخلاص! قالت:

- زهرة... أنا مذنبة ولا أستطيع التخلص من ذنبي.

عرفت ذنبه من ذنبها، لم تحتَجْ لتشرح لي الكثير، فما أن بدأت بالكلام وبدأت دموعها تتساقط، حتى أدركت أن أختي شاركتني مأساتي دون علمي. فهمت سكوتها وانعزالها، فهمت كآبتها ووحدتها. لكن الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو كيف استطاع إقناعها أن كل ما حصل لها كان ذنبها وليس ذنبه. حملت ذنبها معها إلى بيت الزوجية، عانى معها زوجها وصبر عليها. لكن عندما لم تمكِّنه من نفسها لأشهر، عادت مكسورة النفس إلى البيت الذي كسرها.

أحاول أن أفتح عيني لأطرد صورته ورائحته من رأسي. أنظر فأجد علي وقد غفا. أسحبه بلطف، وأمدده على فخذي. أمسح على رأسه، وتنهمر دموعي دون إذنٍ. أستغرب أنه ما زال هناك دمع يسعفني. أستسلم. علمتني الحياة ألا أحارب الآلام، بل أن أرافقها حتى انغمست بها. أصبح الحزن صديقي وأقرب أقربائي.

أسمع صوت الراديو يبث أغنية لوديع الصافي، كانت أمي تردّدها بالإيقاع الكويتي قبل أن يختفي صوتها، بعد أن غناها الفنان غريد الشاطئ: «بتروحلك مشوار». أطلب من السائق أن يرفع صوت

الراديو، وأروح أفكّر في مشواري إلى المجهول. ماذا أفعل؟ إلى أين أنا ذاهبة؟ وماذا سأقول لأم علي؟

أتابع لافتات الطريق. وصلنا مشارف مدينة جبيل الأثرية. أرى قلعتها من بعيد. أتمنى لو أني زرتها يومًا. نكمّل. الطريق مريح، أسلي نفسي بقراءة أسماء المدن والضيع اللبنانية. مدينة عمشيت، ثم البربارة، ثم قلعة المسيلحة التاريخية قبل أن ندخل نفقًا طويلاً خرجنا منه لنطل على ساحل شكا. فجأة، توقفت السيارة. صحا علي عندما توقف هدير السيارة الذي نام على إيقاعه. سألت السائق. فقال: إنها مشكلة في البطارية ويحتاج أن يزودها بالماء. استغليت الفرصة لأحرك قدميَّ قليلاً. نزلت من السيارة فنزل علي خلفي. ركض يقطف وردات بريات على جانب الطريق، جمعهنَّ في باقة صغيرة وقدمهنَّ لي. كيف يعرف هذا الصغير مكامن ضعفي..؟ ضحكته، براءته، رجولته، عفويته، زهوره. ضممت رأسه إلى صدري، وتركته هناك طويلاً وأنا أعبئ قلبي منه. شكرته على ورداته فرفع رأسه الصغير قائلاً:

- لو كنا بسوريا كنت ضميت لك أسوارة ياسمين. ياسمين سوريا ما في مثله بكلّ الدنيا.

أمسكت بوجهه الصغير وقبّلته. تحرك متململاً خجلاً، ثم تنحنح ببراءة كأنه قادم على اعتراف خطير:

- أريد أن أخبرك بسرّ. لكن عليك أن تعديني بألا تبوحي به.

- وعد. لن أفعل.

- عندما نصل لطرابلس وندخل حارتنا، لا تسألي عن أم علي. اسألي عن أم أحمد.

دقائق مرت قبل أن أفهم أن عليًّا من الطائفة العلوية من سوريا، وأنهم عندما هربوا عن طريق حمص إلى طرابس بعد أن تركوا أباهم في سوريا، اضطروا أن يلتحقوا بخالتهم وزوجها اللبناني السني الذي يعيش في منطقة باب التبانة، فأخفوا مذهبهم خوفًا من انتقام أهل السنة في البلدة. رحت أشتم في سري، لعنة الله على كلّ تجار الدم. نزيف لم ولن يجف شريانه طالما هناك سنة ينتقمون من علويين، وعلويون من سنة، ومسلمون من مسيحيين، وهلم جرًّا. طائفية مقرفة تقتات على جهل الشعوب... وعطشها للدم.

نادانا السائق، عندما ركبنا السيارة شعرت بحرارة الشمس التي كنا نقف تحتها. تناولت قنينة ماء من البراد المحمول الذي زوّدنا به الفندق، وأعطيتها لعلي، وأعطيت السائق أخرى وشربت من الثالثة. فوجئت بهذا الرجل الصغير وهو يعود لطفولته. راح علي يرش وجهه وشعره بالماء، بلل ملابسه وجزءاً من كرسي السيارة، تركته يلهو، يعيش براءته. ما أهمية الملابس، والكرسي والسيارة والعالم كله، أمام ضحكة طفل. الهُ يا بني.. نحن لا نعرف ما تخبئه لنا الأقدار. استمتع باللحظة!

ما زال أمامنا حوالى ربع الساعة للوصول إلى طرابلس. أنفة، القلمون، البحصاص. لاح السراب البعيد المخيم على الأفق كما لوحة مرسومة بيد فنان. سماء زرقاء صافية إلّا من بعض غيمات تمرّ على استحياء. لافتة كبيرة (مدينة الميناء ترحب بكم). خفّف السائق من سرعة السيارة ثم اتجه يمينًا بجانب عمود كبير عبارة عن برج أسطواني للسنترال. وصلنا إلى شارع مزدحم بسيارات من كلّ شكل ولون، ركنت معظمها على طرف الطريق تعيق حركة المرور. تأفف السائق وهو يحاول أن يكتم شتائمه. تدحرجت السيارة ببطء. شعور حزين يخيّم

على المدينة، هل هو حزن خارجي أم حزني أنا ألقيه عليها؟ كل الأماكن تتشابه عندما ندخلها بشعور سلبي. بان مسجد التقوى. هدوء يكاد يكون مقدسًا يخيّم على المنطقة إلّا من صوت خطيب الجامع. إنه يوم الجمعة. عدد هائل من البشر لم يسعهم الجامع فافترشوا الرصيف. رحت أراقب المارة والمصلين وهم يستمعون لخطبة الجمعة. عدل علي من جلسته، يبدو أنه شعر بقرب وصوله لحضن أمه. راح يرقب الطريق والناس. التفت إلي قائلاً:

- بيتنا قريب من هون .. ورا الجامع.

شوارع المنطقة تئن بالنازحين. أنظر إليهم أحاول أن أحصيهم. هؤلاء الذين حرموا من الوطن، بالأمس فقط كانوا يعيشون في بيوتهم، يأكلون من حصادهم، يتنفسون هواء بلادهم. أصبحوا بين ليلة وضحاها ضيوفًا ثقلاء على أرصفة مدن تلفظهم بالسرّ والعلن. يعانون من الإذلال والخوف والفقر والعجز. لم يعودوا بشرًا، أصبحوا مجرد أرقام أو شرذمة من النازحين.

عاد علي بعينيه الصغيرتين إلى الشارع. فجأة استنفرت حواسه، وراح يصرخ وهو يؤشر بإصبعه نحو الرصيف:

- هذا أخي حسن.. أخي حسن.

صبيٌّ صغير لا يتعدى السادسة يلبس بنطلون بيجاما وفوقه بلوزة خضراء، وينتعل نعالين أكبر من قدميه، ربما كانا لأبيه، يحمل بطيخة بحجم رأسه. لم أستطع رؤية ملامحه، لكني فرحت لفرح علي برؤية أخيه. أراد أن يفتح النافذة ليناديه، لكنه لم يستطع. التفت لي مرة أخرى وكأنه يطلب مساعدتي. استمهلته:

- انتظر دقيقة يا بني، سنركن السيارة في مكان ما وننزل، نأخذ حسنًا ونذهب إلى بيتكم.

لم ينتظر. بمجرد أن تمهلنا، فتح باب السيارة. حاولت أن أمنعه، أمسكت بيده،، حاول أن يسحبها مني وهو ينادي..

- حسسسسسسسسسن.

مع صرخته أطفأت الدنيا أنوارها. زلزلت الأرض تحتي. سمعت صوت انفجار يصم الآذان. لا أعرف ما الذي حصل؟ غبت لدقيقة، لساعات، ليوم. لا أعرف. فتحت عيني، فوجدت نفسي غارقة في بركة من الدماء والأوساخ وخدي ملتصق بالأسفلت الحار. رائحة الدخان تخنقني، لا أستطيع رفع رأسي، ولم يلبِ جسدي رغبتي في الحركة، سائل حار يتسلّل من عينيَّ، حسبته دمعًا. مسحت عينيَّ بظاهر يدي، فرأيت احمرار الدم على جلدي. لا أشعر بألم.. غريب! لا أشعر بالخوف، كلّ شيء يبدو رماديًا حتى الشمس. ألمح سيارتنا وقد انقلبت على جانبها، ورأس السائق يظهر نصفه الباقي منها. أحاول أن أصرخ لا أجد صوتي. بجانبي امرأة تئنُّ وهي تحمل رضيعًا مدمى. هل فقدت صوتها هي الأخرى؟

أسمع صراخًا، أصوات تتشابك؛ أسعفوا المرأة، يا ساتر، السائق مات. همست: وعلي؟ سمعت صفير سيارات الإسعاف. اختلطت روائح الزيوت والشحوم والأشلاء الآدمية في أنفي. أدرت وجهي، الدمار يحيط بي، جدران متهاوية، واجهات محلات مهمشة، شرفات معلقة. دخان كثيف يغطي المنطقة بأكملها. أشعر بالنعاس.

فجأة أصبح الإسفلت طريًا تحتي كما لو كان سريري. خفة تسحبني بعيدًا نحو حلمٍ ما، كلّ شيء يشهق حولي والنعاسُ يدبُّ

بأطرافي. ما عدتُ أحسُّ بجسدي، ثمّة ما يتخفف مني. أشعرُ بهروب الدماء من مكان ما، لكني لم أتبيّن من أين. كلّ الصور بدأت تعبرُ أمامي، كلّ الوجوه التي أعرفها، كلّ الوجوه التي اضطهدتني كان ترقص أمامي التانغو؛ أبي، جاسم، عادل، بيل وحتى أخواتي. كنت أسمع شهيقي يعلو والظلام يخيّم على عينيّ رغم الشمس التي تلسعني حرارتها. أشعر قلبي يكاد ينخلعُ كلما حاولتُ مدّ ذراعي للإمساك بذراع علي.

تهب عليّ رائحة دهن العود، تهدأ روحي. سحابة من عطر ترفعني. أشم عطر أمي. أعانقها، أتشمم رقبتها، لكن ثمة رائحة غريبة تتسلل خلسة إلى ثنايا روحي. أدقّق، أسحب نفسًا عميقًا، إنها بقايا ياسمين. بجانبي لمحت ذراعًا... ذراعًا فقط. تبدو لصبي. شهقة أبدية تتعلق على شفتيَّ، و..!!

رائحة التانغو

نظرت إلى نصف السرير الفائض عن حاجتها، اندست به، وابتعدت عنه بقدر ما تستطيع. حاولت توقيت أنفاسها مع شخيره لتدخل في إغفاءة تنسيها حقدها. لم يجرحها إهماله بقدر ما أثار نقمتها عليه أكثر وأكثر. حاولت أن تتذكر آخر مرة اقترب منها، داعبها، قبّلها. لم تفلح. راحت تهجس: "ماذا لو كانت المرأة هي التي تتمنّع عن الرجل؟ من المؤكد أنه سيجد مئة وسيلة لإنهاء أزمته، أولها الخيانة وآخرها الاغتصاب الزوجي!"

امتلأ قلبها بالأنين، انكمشت على وجعها، لملمت جسدها وهي تستشعر بألم شديد في بطنها، عانقت نفسها. حبست دمعة لم تشأ لها أن تفضحها وغفت.



